(السنة الرابعة عشرة)

العدد الرابع — أكتوبر - ديسمبر ١٩٤٨

صحيفة دار العلوم

م ١٩٣٤

تصدرها «جماعة دار العلوم»

كل ثلاثة أشهر

المدير — محمد نجيب حتاتة

رئيس التحرير — محمد على مصطفى

المراسلات الخاصة بالتحرير ترسل باسم رئيس التحرير

بنادى دار العلوم ٧٧ شارع الملكة نازلى

الاشتراكات والحوالات المالية

ترسل باسم أمين الصندوق

السباعى بيومى

وكيل كلية دار العلوم

مكتب بريد الدواوين

الاشتراك السنوى

فى القطر المصرى	٢٠ قرشاً
خارج القطر	٣٠ قرشاً
ثمن العدد	٥ قروش

مطبعة العلوم بشارع الخليج ١٦٢

إِنَّ بَاحِثًا مُدَقِّقًا لَوْ أَرَادَ أَنْ يَعْرِفَ أَيْنَ تَمُوتُ
اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ وَأَيْنَ تَحْيَا، لَوَجَدَهَا تَمُوتُ فِي كُلِّ مَكَانٍ
وَتَحْيَا فِي دَارِ الْعُلُومِ»

الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده

النقد في الأدب العربى

للأستاذ السباعى بيومى

وكيل كلية دار العلوم

رابعا - فى العصر العباسى

٤ - العهد الرابع

من ٤٠٧ - ٦٠٦ هـ

وقع الخلفاء العباسيون فى هذا العهد ، تحت قبضة السلاجقة الأتراك ، البعيدين عن تفهم اللغة وتذوق آدابها ، بعد آل بويه الأدباء بله الكتاب والشعراء ، فنال صورتى الأدب كتابته وشعره ، ضعف قلل من كمهما وغض من جمالها ، وكان أنكى بالشعر منه بالكتابة ، لأن الشعر جمال يستغنى عنه فيما يستغنى ، إذا لم يجد المتذوقين النصراء ، فى حين أن الكتابة من ضرورات الملك الحضرى ، يضطر إلى الأبقاء عليها ذووه مرغمين ، وإن لم يفقهوا ما لها من حسن وجمال .

وقد تبع هذا التأثير فى الأدب تأثر فى النقد ، فقل رجاله وكسدت سوقه ، على أنا لانغمط فى هذا العصر شخصيتين من شخصياته لكل منهما مكان فى عالم النقـــد على أصول البلاغة ووحى الذوق ، هما عبد القاهر الجرجانى وابن الأثير الموصلى ، فقدكان أولها فى أوائل هذا العهد، كما كان الآخر فى أواخره ، علما فى النقد ، ومناراً يهتدى به فى طريقه .

فأما عبد القاهر فهو أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجانى المتوفى

سنة ٤٧١ من كبار أئمة النحو واللغة ومؤسسى علوم البلاغة والنقد ، وله فى هذه النواحى تآليف كثيرة ، منها فى البلاغة والنقد كتاباه دلائل الاعجاز وأسرار البلاغة ، وفى كليهما أبحاث شتى فى النحو والفصاحة والشعر والبلاغة وما يتصل بهما من النقد والمحاكمة ، ويمكن اعتبارهما كتابا واحدا فى علوم البلاغة الثلاثة من معان وبيان وبديع ، وفى النقد المبنى على أصول هذه العلوم وعلى الذوق الأدبى التام النضوج ، وليس بالكتابين تمييز بين أبحاث كل علم من أبحاث الآخر ، حيث لم يك ذلك التمييز قد تم إلى حيث هذا العهدلبياني البلاغيين ، إنما تم تمامه على أيدى مناطقتهم بعد وأغلبهم من الأعجام .

وأما ابن الأثير فهو أبو الفتح نصر الدين بن أبي الكرم محمد الشيبانى المعروف بضياء الدين بن الأثير الموصلى أو الجزرى المتوفى سنة ٦٣٧ ، وهو شقيق عز الدين بن الأثير المؤرخ المتوفى قبله سنة ٦٣٠ ومجد الدين بن الأثير المحدث المتوفى قبلهما سنة ٦٠٦ ، وهناك ابن أثير رابع أديب بعد هؤلاء الثلاثة هو عماد الدين بن الأثير أحد شراح قصيدة ابن زيدون وقد توفى سنة ٦٩٩ ، ولابن الأثير موضوع كلامنا مؤلفات فى البلاغة والأدب والنقد أهمها كتاب « المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر » .

وبعد فها نحن أولاء مقدمون بين يديك كلمة عن كل من عبد القاهر وابن الأثير تشرح مهيعه فى النقد الأدبى ، الأول فى كتابيه ـ أو كتابه ـ دلائل الاعجاز وأسرار البلاغة ، والثانى فى كتابه المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر ، إن شاء الله .

عبد القاهر

فى كتابيه دلائل الأعجاز وأسرار البلاغه

تناول عبدالقاهر فى كتابيه السابقين ـ الدلائل والأسرار ـ موضوعات شتى تتصل بالنقد الأدبى على قرب ، وأخرى أشت تتصل به من بعد ، مشاركا فى بعض الأولى الناقدين الكبيرين قبله الجرجانى والآمدى ، ومختصا دونهما ببعضها الآخر ، أما التى تتصل بالنقد من بعد فقد استأثر بها دونهما ، لأنها من الصور البلاغية التى يتحاكم إليها النقاد فى كثير الأحيان ، وهو للبلاغه صنف كتابيه المذكورين ، وإليك كلمة موجزة أو إشارة عابرة عما عرض له تنبىء عن أسلوبه فى النقد ومكانته فيه : ـ

١ ـ تعرض عبد القاهر أول ما تعرض فى الدلائل ـ بعد حضه على رواية الشعر وعيبه من زهدوا فيه ، وتعرض لمسألة هامة هى أن نظم الكلام يتوقف على التركيب النحوى وفند من أنكروا على النحو ذلك ، ترى هذا منه فى الصفحات ١٣ ، ٣٩ ، ٤٣ ، ٦٠ وما يلى هذه الصفحات فى كثير أو قليل ، وكان من أبين قوله فى ذلك ما جاء فى الصفحة الستين حيث يقول مما قال ، « واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذى يقتضيه علم النحو ، وتعمل على قوانينه وأحواله ، وتعرف مناهجه التى نهجت فلا تزيغ عنها ، وتحفظ رسومه التى رسمت فلا تخل بشىء منها ، وذلك أنا لا نعلم شيئا يبتغيه الناظم بنظمه ، غير أن ينظر فى وجوه كل باب وفروقه ، ينظر فى الخبر إلى الوجوه التى يراها فى قوله ، زيد منطلق وزيد ينطلق وينطلق زيد وانطلق زيد وزيد المنطلق والمنطلق زيد وزيد هو المنطلق وزيد هو ينطلق . وفى الشرط والجزاء إلى الوجوه التى يراها فى قوله ، إن تخرج أخرج وإن خرجت خرجت وإن تخرج فأنا خارج وأنا خارج إن خرجت وأنا إن خرجت خارج . وفى الحال إلى الوجوه التى يراها فى قوله جاءنى زيد مسرعا وجاءنى يسرع ،

وجاءنى وهو مسرع وجاءنى وهو يسرع وجاءنى قد أسرع وجاءنى وقد أسرع، فيوف لكل من ذلك موضعه حيث ينبغى له . وينظر فى الحروف التى تشترك فى معنى ثم ينفرد كل واحد منها بخصوصه فى ذلك المعنى ، فيضع كلا من ذلك فى خاص معناه ، نحو أن يجىء بما فى نفى الحال وبلا إذا أراد نفى الاستقبال وبان فيما يترجح بين أن يكون وألا يكون . وينظر فى الجمل التى ترد فيعرف موضع الفصل فيها من موضع الوصل ، ثم يعرف فيما حقه الوصل موضع الواو من موضع الفاء ، وموضع الفاء من موضع ثم أو من موضع أم وموضع لكن من موضع بل . ويتصرف فى التعريف والتنكير والتقديم والتأخير فى الكلام كله ، وفى الحذف والتكرار والأضمار والأظهار ، فيضع كلا من ذلك موضعه ويستعمله على الصحة وعلى ما ينبغى له . هذا هو السبيل، فلست بواجد شيئا يرجع صوابه إن كان صوابا وخطؤه إن كان خطأ إلى النظم ويدخل تحت هذا الاسم ، إلا وهو معنى من معانى النحو قد أصيب به موضعه ووضع فى حقه ، أو عومل بخلاف هذه المعاملة فأزيل عن موضعه واستعمل فى غير ما ينبغى له ، ولست ترى كلاما قد وصف بصحة نظم أو فساده أو وصف بمزية وفضل فيه ، إلا وأنت تجد مرجع تلك الصحة وذلك الفساد ، وتلك المزية وذلك الفضل إلى معانى النحو وأحكامه ، وتجده يدخل فى أصل من أصوله ويتصل بباب من أبوابه » .

وبعد أن قرر هذا أخذ يسرد الشواهد على ذلك فى ناحيتى الفساد والصحة والنقص والفضيلة ، فذكر عدة أبيات لفحول الشعراء قد فسد نظمها لسوء تأليفها ، ثم خرج من ذلك يقول مدللا على الحسن ، وإذ قد عرفت ذلك فاعمد إلى ما تواصفوه بالحسن وتشاهدوا له بالفضل لأجل النظم خصوصا دون غيره ، من معنى لطيف أو حكمة أو أدب أو استعارة أو تجنيس أو غير ذلك مما لا يدخل فى النظم ، وتأمله فاذا رأيتك قد ارتحت واهتززت واستحسنت ،فانظر الى حركات الأريحية لأمم كانت وعندماذا ظهرت فانك ترى عيانا أن الذي قلت لك كما قلت ، اعمد الى قول البحيري :

بلونا ضرائب من قد ترى فما إن رأينا لفتح ضريبا
هو المرء أبدت له الحادثا ت عزما وشيكا ورأيا مصيبا
تنقل فى خلق سؤدد سماحا مرجى وبأسا مهيبا
فكالسيف إن جئته صارخا وكالبحر إن جئته مستثيبا

فإذا رأيتها قد راقتك وكثرت عندك ، ووجدت لها اهتزازا فى نفسك فعد فانظر فى السبب واستقص فى النظر فانك تعلم ضرورة أن ليس إلا أنه قدم وأخر وعرف ونكر وحذف وأضمر وأعاد وكرر وتوخى على الجملة وجها من الوجوه التى يقتضيها علم النحو ، فأصاب فى ذلك كله ثم لطف موضع صوابه وأتى مأتى يوجب الفضيلة ، أفلا ترى أن أول شىء يرد قلبك منها قوله ، هو المرء أبدت له الحادثات بالبدء بالضمير ، ثم قوله تنقل فى خلق سؤدد بتنكير السؤدد وإضافة الخلقين اليه ، ثم قوله فكالسيف وعطفه بالباء مع حذفه المبتدأ ثم تكريره الكاف فى قوله وكالبحر ثم أن قرن إلى كل واحد من التشبيهين شرطا جوابه فيه ، ثم أن أخرج من كل واحد من الشرطين حالا على مثال ما أخرج من الآخر . وبعد أن صنع مثل هذا الصنيع فى أبيات لابراهيم بن العباس ، قال ، وهكذا السبيل أبدا فى كل حسن ومزية رأيتهما قد نسبا إلى النظم ، وفضل وشرف أحيل فيهما عليه .

٢ — وتعرض كذلك لنظرية هامة طال فيها الاخذ والرد بين رجالات الأدب والبلاغة ، هى نظرية اللفظ والمعنى أيهما ترجع إليه مزية الكلام مفردا وإذا رجعت اليهما معا فما علاقة كل بصاحبه ، وأيهما فى هذه الحالة أوفى قسطا وأوفر حظا ، فقرر فيما قرر أن العبرة بالمعنى من حيث دلالة اللفظ عليه لا باللفظ فى ذاته ، وأفاض فى ذلك أيما أفاضة بالصفحات ٢٤ ، ٣٧ ، ١٨٦ ، ٢٥٧ . ٢٩١ ، ٢٤٥ ، ٢٧٢ من الدلائل ، وكثيرا ما سلخ بعد الصفحة صفحات فى الكلام ، وهاتان نبذتان اثنتان .

فأما إحداهما فقد قرر فيها النظرية ذاتها وهى :

فقد اتضح إذن اتضاحا لا يدع للشك مجالا أن الألفاظ لا تتفاضل من

حيث هى ألفاظ مجردة ولا من حيث هى كلم مفردة ، وأن الألفاظ تثبت لها الفضيلة وخلافها فى ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التى تليها أو ما أشبه ذلك مما لاتعلق له بصريح اللفظ ، ومما يشهد لذلك أنك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك فى موضع ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك فى موضع آخر ، وبعدأن مثل لذلك بحسن كلمة أخدع فى قوله الحماسى .

تلفت نحو الحى حتى وجدتنى وجعت من الأصغاء ليتا وأخدعا

وقبحها فى قول أبى تمام :

يا دهر قوم من اخدعيك فقد أضججت هذا الأنام من خرقك

وكذا حسن كلمة شىء فى قول أبى حية :

إذا ما تقاضى المرء يوم وليلة تقاضاه شىء لا يمل التقاضيا

وسخفها فى قول المتنبى :

لو الفلك الدوار أبغضت سعيه لعوقه شىء عن الدوران

قال فلو كانت الكلمة إذا حسنت حسنت من حيث هى لفظ وإذا استحقت المزية والشرف استحقت ذلك فى ذاتها وعلى انفرادها دون أن يكون السبب فى ذلك حالها مع أخواتها المجاورة لها ، لما اختلفت بها الحال كما رأيت ولكانت إما أن تحسن أبداً أو لا تحسن أبدا . . .

وأما الأخرى فقدساقها دفعا لشبهة قد يعرضها معارض فى رأيه وهى أن يشبه الكلم فى ضم بعضها إلى بعض بضم الناسج غزل الإبريسم بعضه إلى بعض دون نظر إلى شىء غير هذا الضم من المعانى التى يجب فى نظر عبد القاهر أن تكون الموجهة فى التأليف ، وذلك حيث يقول : « وفساد هذا وشبهه أن هاهنا استدلا لطيفا تكثر بسببه الفائدة ، وهو أن يتصور أن يعمد عامد إلى نظم كلام بعينه فيزيله عن الصورة التى أرادها الناظم له ويفسدها عليه ، من غير أن يحول منه لفظا عن موضعه أو يبدله بغيره أو يغير شيئا من ظاهر أمره على حال ، مثال ذلك أنك إن قدرت فى بيت أبى تمام من وصف القلم

لعاب الأفاعى القاتلات لعابه وأرى الجنى اشتارته أيد عواسل

أن لعاب الأفاعى مبتدأ ولعابه خبر كما يوهمه الظاهر ، أفسدت عليه كلامه ، وأبطلت الصورة التى أرادها فيه ، وذلك أن الغرض أن يشبه مداد القلم بأرى الجنى على معنى أنه إذا كتب فى العطايا والصلات أوصل إلى النفوس ما تحلو مذاقته عندها وأدخل السرور واللذة عليها ، وهذا المعنى إنما يكون إذا كان لعابه مبتدأ ولعاب الأفاعى خبراً ، فاما تقديرك العكس فانه يبطل ذلك ويمنع منه ألبتة ويخرج الكلام إلى مالا يجوز أن يكون مراداً فى مثل غرض أبى تمام ، وإذن فلو كان حال الكلم فى ضم بعضها إلى بعض كحال غزل الابريسم لكان ينبغى ألا تتغير الصورة الحاصلة من نظم كلم حتى تزال عن مواقعها ، كما لا تتغير الصور الحادثة عن ضم الابريسم بعضه إلى بعض حتى تزال الخيوط عن مواضعها .

٣ - وعرض للذوق يجعله الركن الركين فى التحاكم والأصل الأصيل فى إدراك القيم والمزايا ، عرض له عرضا غير مخصص فى مواضع تعي الحصر ، وتعرض له قاصدا ومخصصا فى موضعين من الدلائل شغل أحدهما الصفحات ٢٠٧ - ٢١٢ وسود الآخر الصفحات ٣٩٣ - ٤٠٣ ، فكان مما قال فى الأول ، بعد أن تكلم طويلا عن اللفظ والنظم ، وبخاصة عن المزايا والفضائل ، « اعلم أنه لا يصادف القول فى هذا الباب موقعا من السامع ولا يجد لديه قبولا ، حتى يكون من أهل الذوق والمعرفة ، وحتى يكون ممن تحدثه نفسه بأن لما يومىء إليه من الحسن واللطف أصلا ، وحتى يختلف الحال عليه عند تأمل كلام ، فيجد الأريحية تارة ويعرى منها أخرى ، وحتى إذا عجبته عجب ، وإذا نبهته لموضع المزية انتبه ، فأما من كان الحالان والوجهان عنده أبدا على سواء ، وكان لا يتفقد من أمر النظم إلا الصحة المطلقة وإلا إعرابا ظاهراً ، فما أقل ما يجدى الكلام معه ، فليكن من هذه صفته عندك بمنزلة من عدم الاحساس بوزن الشعر ، والذوق الذى يقيمه به والطبع الذى يميز صحيحه من مكسوره ومزاحفه من سالمه وما خرج من البحر مما لم يخرج منه ، فى أنك لا تتصدى له ولا تتكلف تعريفه ، لعلمك أنه قد

عدم الاداة التي منها يعرف والحاسة التي بها يجد ، وليكن قدحك فى زند وار والحك فى عود أنت تطمع منه فى نار . . . »

وكان مما قال فى الثانى يعنى الأحساس بالمزية عن طريق الذوق « إن هذا الأحساس قليل فى الناس ، حتى إنه ليكون أن يقع للرجل الشيء من هذه الفروق والوجوه فى شعر يقوله أو رسالة يكتبها الموقع الحسن ، ثم لا يعلم أنه قد أحسن ، فلست تملك إذن من أمرك شيئا حتى تظفر بمن له طبع إذا قد حته ورى وقلب إذا أريته رأى ، فأما وصاحبك لا يرى ما تريه ولا يهتدى للذى تهديه ، فأنت رام منه فى غير مرمى ومعن نفسك فى غير جدوى، وكما لا تقيم الشعر فى نفس من لا ذوق له ، كذلك لا تفهم هذا الشأن من لم يؤت الآلة التى بها يفهم . إلا أنه إنما يكون البلاء إذا ظن العادم له أنه أوتيها وأنه ممن يكمل للحكم ويصح منه القضاء ، فجعل يقول القول لو علم غيه لاستحيا منه ، فأما الذى يحس بالنقص من نفسه ويعلم أنه قد علم علما قد أوتى أكثر منه سواه ، فأنت منه فى راحة ، وهو رجل عاقل قد حماه عقله أن يعدو طوره وأن يتكلف ما ليس بأهل له . . . »

ومما يذكر فى هذا الموطن فضلا لعبد القاهر على زميليه الآمدى والجرجانى، أنه لم يرض الوقوف عند إحساس الذوق بمكان المزية والحسن دون المضى فى تعرف العلة والسبب ، فمضى طموحا إلى هذا التعرف طامعا أن يصل منه إلى الكثير وإن أعياه القليل ، استمع إليه يقول فى هذا الموضع مما قال ، حين ذكر عادمى الاحساس بالذوق يذكر هؤلاء الزاهدين فى تقصى العلة والبحث ، « واعلم أن هؤلاء وإن كانوا هم الآفة العظمى فى هذا الباب ، فإن من الآفة أيضا من زعم أنه لا سبيل إلى معرفة العلة فى قليل ما تعرف المزية فيه وكثيره ، وأن ليس إلا أن تعلم أن هذا التقديم وهذا التنكير أو هذا العطف أو هذا الفصل حسن ، وأن له موقعا من النفس وحظا من القبول، فاما أن تعلم لم كان ذلك وما السبب ، فمما لا سبيل إليه ولا مطمع فى الاطلاع عليه ، فهو بتوانيه والكسل فيه فى حكم من قال ذلك » واعلم أنه ليس إذا لم

يمكن معرفة الكل وجب ترك النظر فى الكل ، ولأن تعرف العلة والسبب فيما يمكنك معرفة ذلك فيه وإن قل، فتجعله شاهداً فيما لم تعرف، أحرى من أن تسد باب المعرفة على نفسك ، وتأخذها عن الفهم والتفهم وتعودها الكسل والهوينى . . . »

٤ ـ وتناول فيما تناول السرقة والموازنة وهما من واد واحد ، فأما السرقة فقد تناولها فى موضعين اثنين من الأسرار وقع أولهما فى الصفحات ٢١٣ – ٢٥٩ ووقع الآخر فى الصفحات ٢٧٤ - ٢٨٣ .

ـ تكلم فى الأول على المعانى من حيث قابلية بعضها أن يكون موضع أخذ وعدم قابلية بعضها الآخر . فقال إن من المعانى ما هو عقلى ومنها ما هو تخييلى ، فالعقلى هو الذى يقال إنه صدق فما أثبته ثابت وما نفاه منفى، وأكثر هذا منتزع من القرآن والحديث وكلام الصحابة ومأثور السلف من الأمثال السائرة والحكم القديمة كقول القائل « يعنى ابن الرومى » .

وما الحسب الموروث لادر دره   بمحتسب إلا بآخر مكتسب

وقول محمد بن الربيع الموصلى :

ووزن كل امرىء ما كان يحسنه   والجاهلون لأهل العلم أعداء

وقول المتنبى :

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى   حتى يراق على جوانبه الدم

وقوله أيضا :

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته   وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

ووضع الندى فى موضع السيف بالعلا   مضر كوضع السيف فى موضع الندى

ونحو هذا من المعانى الصريحة التى يشهد لها العقل بالصحة، وتتفق العقلاء على الأخذ بها فى كل جيل وأمة ، ويوجد لها أصل فى كل لسان ولغة ، ومثل هذا النوع على إطلاقه إذا اشترك فيه شاعر وشاعر لا يقال فيه إن هذا سرق من ذاك . أما التخييلى فهو ما كان على العكس من ذلك ،

وهو كثير المسالك مفتن المذاهب لا يكاد يحصر . فمنه ما يتلطف فى صنعته حتى يعطى شبها من الحق ويغشى رونقا من الصدق كقول أبي تمام :

لا تنكرى عطل الكريم من الغنى   فالسيل حرب للمكان العالى

وكقول الآخر فى الشيب :

الشيب كره وكره أن يفارقنى   أعجب بشيء على البغضاء مودود

ومنه ما يعمدون إليه حين يريدون تفضيل شيء أو تنقيصه ومدحه أو ذمه ، من نقل بعض صفات لغيره تشاركه وليست سبب الفضيلة والنقيصة ، كقول البحترى فى الشيب أيضا :

وبياض البازى أصدق حسنا   إن تأملت من سواد الغراب

وكذلك قوله فيه :

والصارم المصقول أحسن حالة   يوم الوغى من صارم لم يصقل

ومنه ما يعمدون فيه إلى الوصف الذى هو خلقة فى شيء فيجعلونه قد حصل له من الممدوح كقول ابن بابك :

ألا يا رياض الحزن من أبرق الحمى   نسيمك مسروق ووصفك منتحل

حكيت أبا سعد فنشرك نشره   ولكن له صدق الهوى ولك الملل

ومنه أن يدعى فى الصفة الثابتة للشيء أنها كانت لعلة يختلقها الشاعر كقول المتنبي :

لم يحك نائلك السحاب وإنما   حمت به فصبيبها الرحضاء

وهذا النوع الأخير كثير جداً وقد مثل له ولما يشبهه بعشرات الأمثلة .

وقريب من هذا أن يكون لمعنى من المعانى أو فعل من الأفعال علة مشهورة عن طريق الطبع أو العادة فيمنع الشاعر تلك العلة ويضع له أخرى ليست بعلة كقول المتنبي :

ما به قتل أعاديه ولكن   يتقى إخلاف ما ترجو الذئاب

وقول أبي طالب المأمونى :

لا يذوق الأغفاء الا رجاء   أن يرى طيف مستميح رواحا

وليس من وادى هذا البيت الأخير فى الطيف قول القائل فيه .

وإنى لأستغشى وما بى نعسة لعل خيالا منك يلقى خياليا

إذ أن من الحقيقة أن المغرم قد ينام إذا بعد عهد حبيبه به ليرى طيفه :

ومن التخيل ما قد يترك فيه التعليل تناسيا للتشبيه كأن الكلام على الحقيقة كقول البحترى :

طلعت لهم وقت الشروق فعاينوا سنا الشمس من أفق ووجهك من أفق
وما عاينوا شمسين قبلهما التقى ضياؤها وفقا من الغرب والشرق

ولهذا النوع غزارة مستفيضة ذكر منها عبد القاهر الكثير، ومما له طبقة عالية فيه قول الفرزدق :

أبى أحد الغيثين صعصعة الذى متى تخلف الجوزاء والدلو يمطر
أجار بنات الوائدين ومن يجر على الموت تعلم أنه غير مخفر

إلى غير هذه الأنواع مما يجد الشاعر فيه عن طريق التخيل سبيلا إلى أن يبدع ويزيد ، ويبدىء فى اختراع الصور ويعيد ، ويصادف مضطربا كيف شاء واسعا ، ومددا من المعانى متتابعا ، ويكون كالمغترف من غدير لا ينقطع، والمستخرج من معدن لا ينتهى ، وفيها تتأتى السرقة ويكون الأخذ .

وتكلم فى الموضع الثانى عن حقيقة السرقة فقال ، إذا اتفق الشاعران ، لم يخل ذلك من أن يكون فى الغرض على الجملة والعموم كوصف الممدوح بالشجاعة والسخاء أو وصف الفرس بالسرعة أو ما جرى هذا المجرى ، أو يكون فى وجه الدلالة على ذلك الغرض، بأن يذكر ما يستدل به على إثبات تلك الصفات ، كوصف الرجل حال الحرب بالابتسام - ثم قال - فأما الاتفاق فى عموم الغرض فلا يكون الاشتراك فيه داخلا فى الأخذ والسرقة، لعمومه وتساوى الناس فى معرفته ، والا فمن يجعل أحد الشاعرين عيالا على الآخر فى تصور معنى الشجاعة وأنها مما يمدح به ، وأن الجهل ما يذم به ، وأما الاتفاق فى وجه الدلالة ، فان كان مما اشترك الناس فى معرفته لاستقراره فى العقول أو العادات ، كان حكمه حكم العموم الذى تقدم ذكره كالتشبيه بالأسد

فى الشجاعة وبالبحر فى السخاء وبالبدر فى البهاء وهكذا . وان كان ما لا ينتهى إليه المتكلم إلا بنظر وتدبر ولا يناله إلا بطلب واجتهاد ، بأن كان من دونه حجاب يحتاج إلى خرق بالنظر ، وعليه كم يفتقر إلى شق بالفكر ، أو كان درا فى قاع بحر يحتاج إلى الغوص ، أو ممتنعا فى شاهق يتطلب الصعود ، أو كامنا كالنار فى الزند لا تظهر إلا بالقدح ، أومشابكا لغيره كعروق الذهب لا تنال إلا بالحفر والفصل ، فهذا هو الذى يدعى فيه الاختصاص والسبق ، ويجعل فيه سلف وخلف ومفيد ومستفيد ، فيقضى بين القائلين فيه بالتفاضل والتباين ، وأن أحدهما زاد على الآخر أو نقص .

على أن الأول الذى وسم بالمشترك العامى ، والذى ألحق به من الثانى وهو الظاهر الجلى قد يكونان كهذا الأخير محل سرقة وأخذ إذا لحقتهما صفة وعمل فيهما نقش عن طريق الكناية والتعريض أو الرمز والتلويح ، كقول القائل مادحا :

إن السحاب لتستحيي إذا نظرت إلى نداك فقاسته بما فيها

وكقول الآخر ذاما :

يا حاجب الوزراء إنك عندهم سعد ولكن أنت سعد الذابح

ومن عجيب هذا قول ابن المعتز يذم القمر :

يا سارق الأنوار من شمس الضحى يا مثكلى طيب الكرى ومنغصى
أما ضياء الشمس فيك فناقص وأرى حرارة نارها لم تنقص
لم يظفر التشبيه منك بطائل متسلخ بهقا كلون الأبرص

فقد حول صفات الجمال فيه إلى قبح وعكسه من تحويل صفات القبح إلى جمال ما جاء فى مرثية أبى الحسن لابن بقية حين صلب ، ومطلعها

علو فى الحياة وفى الممات لحق تلك إحدى المعجزات

فقد قلب جملة ما يتنكر من أحوال المصلوب إلى خلافها بتأويلات ترى فيها وبها العجب .

أما الموازنة فقد تناولها فى موضع واحد من الدلائل سود فيه الصفحات ٣٠١ - ٣٧٧ وهذا تصوير لما أتى به هناك : —

بدأ ما كتب بقوله « وقد أردت أن أكتب جملة من الشعر الذى أنت ترى الشاعرين فيه قد قالا فى معنى واحد ، وهو ينقسم قسمين ، قسم أنت ترى أحد الشاعرين فيه قد أتى بالمعنى غفلا ساذجا ، وترى الآخر قد أخرجه فى صورة تروق وتعجب ، وقسم أنت ترى كل واحد من الشاعرين قد صنع فى المعنى وصور . وأبدأ بالقسم الاول الذى يكون المعنى فى أحد البيتين غفلا وفى الآخر مصوراً مصنوعاً . ويكون ذلك إما لأن متأخراً قصر عن متقدم ، وإما لأن هدى متأخراً لشىء لم يهتد إليه المتقدم ، قال ذلك ثم أورد لهذا القسم ستة وثلاثين مثلا ، منها فى النوع الذى قصر فيه المتأخر عن المتقدم قول البحترى .

إذا محاسنى اللاتى أدل بها كانت ذنوبى فقل لى كيف أعتذر

مع قول أبى تمام :

لئن كان ذنبى أن أحسن مطلبى أساء ففى سوء القضاء لى العذر

وقول أبى تمام :

تدعى عطاياه وفراو هى إن شهرت كانت فخارا لمن يعفوه مؤتنفا

مع قول أمية بن أبى الصلت :

عطاؤك زين لامرىء إن أصبته بخير وما كل العطاء يزين

وقول المتنبى .

راميات بأسهم ريشها الهد ب تشق القلوب قبل الجلود

مع قول كثير :

رمتنى بسهم ريشه الكحل لم يجز ظواهر جلدى وهو فى القلب جارح

ومنها فى النوع الذى هدى فيه المتأخر لشىء لم يهتد إليه المتقدم قول المتنبى:

إذا اعتل سيف الدولة اعتلت الأرض ومن فوقها والبأس والكرم المحض

مع قول البحترى :

ظللنا نعود الجود من وعكك الذى وجدت وقلنا اعتل عضو من المجد

وقول المتنبى :

وليس يصح فى الأذهان شىء إذا احتاج النهار إلى دليل

مع قول أبى تمام :

الصبح مشهور بغير دلائل من غيره ابتغيت ولا أعلام

وقول خالد الكاتب :

رقدت ولم ترث للساهر وليل المحب بلا آخر

مع قول بشار :

تبيت تراعى النجم ترجو نفاده وليس لليــــل العاشقين نفاد

أما القسم الثانى فقد صدره بقوله « ذكر ماأنت ترى فيه فى كل واحد من من البيتين صنعة وتصويرا وأستاذية على الجملة » ثم أورد له عشرين شاهدا ، ذكر لأخيرها وكان فى وصف الشعراء الشعر وعمله وإدلالهم به ، عشرين مثلا ، وعقب على بعضها تعقيبا طال أو قصر على العكس فى شواهد القسم الأول الذى تركه بغير تعقيب بل ولا تمييز بين نوعيه .

من ذلك قول رجل من الخوارج أتى به الحجاج فى جماعة من أصحاب قطرى فقتلهم ومن عليه ، فلما عاد إلى قطرى قال له عاود قتال عدو الله فقال :

أأقاتل الحجــــاج عن سلطانه بيد تقر بأنهــــا مولاته

ماذا أقول إذا وقفت إزاءه فى الصف واحتجت له فعـلاته

وتحدث الأقوام أن صنائعا غرست لدى فحنظلت نخلاته

مع قول أبى تمام

أسربل هجر القول من لو هجوته إذن لهجانى عنه معروفه عندى

فمن هذا الذى ينظر الى بيت الخارجى وبيت أبى تمام فلا يعلم أن صورة المعنى فى ذلك غير صورته فى هذا ، كيف والخارجى يقول « واحتجت له فعلاته » ويقول أبو تمام « إذن لهجانى عنه معروفه عندى » ومتى كان احتج وهجا واحداً فى المعنى .

ومنه مما ذكره القاضى أبو الحسن ، فيما ذكر فيه تناسب المعانى ، بيت أبى نواس

خليت والحسن تأخذه تنتقى منه وتنتخب

وبيت عبد الله بن مصعب

كأنك جئت محتكماً عليهم تخير فى الأبوة ما تشاء

وذكر أنهما معا من بيت بشار

خلقت على ما فى غير مخير هواى ولو خيرت كنت المهذبا

والأمر فى تناسب هذه الثلاثة ظاهر ، ثم إنه ذكر أن أبا تمام قد تناوله فأخفاه حيث قال :

فلو صورت نفسك لم تزدها على ما فيك من كرم الطباع

ومنه مما ذكره فى وصف الشعر قول أبى تمام

إليك أرحنا عازب الشعر بعد ما تمهل فى روض المعانى العجائب
غرائب لاقت فى سمائك أنسها من المجد فهى الآن غير غرائب
ولو كان يفنى الشعر أفناه ماقرت حياضك منه فى السنين الذواهب
ولكنه صوب العقول إذا انجلت سحائب منا أعقبت بسحائب

مع قول البحترى

أيذهب هذا الدهر لم ير موضعى ولم يدر مامقدار حلى ولا عقدى
ويكسد مثلى وهو تاجر سؤدد يبيع ثمينات المكارم والمجد
سوائر شعر جامع بدد العلا تعلقن من قبلى وأتعبن من بعدى
يقدر فيها صانع متعمل لأحكامها تقدير داود فى السرد

هذا وقد جرت لعبد القاهر موازنات لمناسبات كثيرة فى مواضع شتى، من ذلك ما ذكره بين قول سعيد بين حميد .

وعد البدر بالزيارة ليلا فاذا ما وفى قضيت نذورى
قلت يا سيدى ولم تؤثر الليل على بهجة النهار المنير
قال لى لا أحب تغيير رسمى هكذا الرسم فى طلوع البدور

وقوله فى ضد ذلك :

قلت زورى فأرسلت أنا آتيك سحره

قلت فالليل كان أخفى وأدنى مسره

فأجابت بحجة زادت القلب حسره

أنا شمس وإنما تطلع الشمس بكره

وينبغى أن تعلم أن هذه القطعة ضد الأولى من حيث اختار النهار وقتاً للزيارة فى تلك ، والليل فى هذه ، فاما من حيث يختلف جوهر الشعر ويتفق فمثل وشبيه وليس بضد ولا نقيض .

٥ — وتناول الاستعارة وحدها أو معها غيرها كثيراً ، وكان ذلك منه فى ثلاثة مواضع من الأسرار هى ٢٠ — ٦٥ ، ١٩٢ ، ٢١٣ ، ٢٦٠ - ٢٧٤ ومثلها بالدلائل هى ٥١ — ٦٥ ، ٣١٣ — ٣١٨ ، ٣٢٣ — ٣٣٤ ، وكان مما دونه فى ذلك ما نعبر عنه بالآتى :

قال فى تعريف الاستعارة « اعلم أن الاستعارة فى الجملة أن يكون لفظ الأصل فى الوضع اللغوى معروفا تدل الشواهد على أنه اختص به حين وضع ، ثم يستعمله الشاعر أو غير الشاعر فى غير ذلك الأصل وينقله إليه فيكون هناك كالعارية » غير أنه جعل منها قسما لايكون للنقل فيه فائدة ، وعرفه بأنه ما وقع عن طريق التوسع اللغوى فى الأسماء التى اختلفت باختلاف أنواع الحيوان كالشفة للانسان والمشفر للبعير والجحفلة للفرس مثلا حيث يستعمل لفظ من هذه مكان آخر كقول الراجز يجعل صوت الماء فى أعناق الابل وهى تشرب كصوت الحمار .

تسمع للماء كصوت المسحل بين وريدها وبين الجحفل

وعرف المفيد بأنه ما كان للنقل فيه فائدة تكشف عن معنى من المعانى وغرض من الأغراض ، وقد عنى بهذا القسم حتى اعتبره الاستعارة فى الحقيقة على ما سيأتى آخر القول وجعله نوعين ، نوع تقع الاستعارة فيه عن نقل اللفظ عن معناه الأصلى إلى معنى آخر يجرى عليه كقولك « كلمتنا ظبية » ، وأنت

تعنى امرأة ، ونوع يبقى اللفظ فيه على حقيقته ولكنه يوضع موضعا ليس له كيد المسندة للشمال فى قول لبيد :

وغداة ريح قد كشفت وقرة   قد أصبحت بيد الشمال زمامها

كأنه يريد أن يشير بالنوعين إلى ما أفصح عنه بعد من التصريح والتكنية ، وأخذ يفرع من ذلك ضروبا يدرجها من الضعف إلى القوة . منها أن يرى معنى الكلمة المستعارة موجودا فى المستعار له من حيث عموم جنسه على الحقيقة ، إلا أن لذلك الجنس خصائص ومراتب فى الفضيلة والنقص ، فأنت تستعير لفظ الأفضل لما هو دونه كاستعارة الطيران لغير ذى الجناح من قول القائل فى الفرس :

لو يشا طار به ذو ميعة   لاحق الآطال نهد ذو خصل

ومنها أن يكون الشبه مأخوذا من صفة هى موجودة فى كل واحد من المستعار له والمستعار منه على الحقيقة كقولك « رأيت شمسا ترنو » وأنت تريد إنسانا متهلل الوجه ، فالصفة هنا فى جنسين مختلفين الانسان والشمس وهى فى الضرب الأول لجنس واحد هو الطير والفرس ولكنها مختلفة فيه . ومنها وهو الصحيح الخالص من الاستعارة ، أن يكون الشبه مأخوذا من الصور العقلية كاستعارة النور للبيان الكاشف عن الحق فى قوله تعالى : ـ « واتبعوا النور الذى أنزل معه » سواء فى ذلك ما كان الأخذ فيه من محسوس لمعقول كالآية السابقة ، أو من المحسوس للمحسوس كقوله ﷺ (إياكم وخضراء الدمن) أو من المعقول للمعقول كتنزيل الموجود منزلة المعدوم ، لفقده المعانى التى يظهر بها قدر الشىء على النحو الذى يريده القائل :

خلقوا وما خلقوا لمكرمة   فكأنهم خلقوا وما خلقوا

رزقوا وما رزقوا سماح يد   فكأنهم رزقوا وما رزقوا

والعكس ، لما خلف من آثار تحيى ذكره على النحو الذى يريده القائل

ردت صنائعه إليه حياته فكأنه من نشرها منشور

وبعد فهذه نماذج من أمثلة ساقها للاستعارة الفائقة ، منها قول القائل

سالت عليه شعاب الحى حين دعا أنصاره بوجوه كالدنانير

وقول الآخر

اليوم يومان مذ غيبت عن بصرى نفسى فداؤك ما ذنبى فاعتذر

أمسى وأصبح لا ألقاك واحزنا لقد تأنق فى مكروهى القدر

ولبعض الأعراب

ولرب خصم جاهدين ذوى شذا تقذى عيونهم بهتر هاتر

لد ظأرتهـم على ماسـاءهم وخسأت باطلهم بحق ظاهر

ولابن المعتز

يناجينى الاخلاف من تحت مطله فتختصم الآمال واليأس فى صدرى

وقول آخر وهو مما أنشده الجاحظ

لقد كنت فى قوم عليك أشحة بنفسك إلا أن ما طاح طائح

يودون لو خاطوا عليك جلودهم ولا تدفع الموت النفوس الشحائح

ولكى تعلم قدر الاستعارة فى نفس عبدالقاهر وحفله بمكانتها فى القول ، استمع اليه يقول فى الضرب المفيد منها ، « اعلم أن الاستعارة فى الحقيقة هى هذا الضرب دون الأول ، وهى فيه أمد ميدانا وأشد افتنانا وأكثر جريانا وأعجب حسنا وإحسانا ، وأوسع سعة وأبعد غورا ، وأذهب نجدا فى الصناعة وغورا ، نعم وأسحر سحرا ، وأملأ بكل مايملأ صدراً ، ويمتع عقلا ويؤنس نفسا ، ويوفر أنسا ، وأهدى إلى أن تهدى اليك عذارى قد تخير لها الجمال ، وعنى بها الكمال ، وأن تخرج لك من بحرها جواهر إن باهتها الجواهر مدت فى الشرف والفضيلة باعا لا يقصر ، وأبدت من الأوصاف الجليلة محاسن لا تنكر ، وردت تلك بصفرة الخفر ؛ ووكلتها إلى نسبتها من الحجر ، وأن تثير من معدنها تبرا لم تر مثله ثم تصوغ منها صياغات تبطل الحلى ، وتريك الحقيقى من الحلى ، وأن تأتيك على الجملة بعقائل يأنس

إليها الدين والدنيا ، وشرائف لها من الشرف الرتبة العليا ، وهى أجل من أن تأتى الصفة على حقيقة حالها وتستوفى جملة رجالها .. . »

٦ ـ وأخيرا ـ فيما نريد أن نذكر ـ تناول عبدالقاهر الجناس فى موضع واحد وقع بالأسرار من صفحة ٤ - ١٣ وهو إنما ذكر التجنيس احتجاجا لنظرية المعنى على اللفظ ، ولذلك يقول « أما التجنيس فانك لا تستحسن تجانس اللفظين إلا إذا كان موقع معنيهما من العقل موقعا حميدا ، ولم يكن مرمى الجامع بينهما مرمى بعيدا ، ألا تراك استضعفت تجنيس أبى تمام فى قوله : ـ

ذهبت بمذهبه السماحة فالتوت فيه الظنون أمذهب أم مذهب

واستحسنت تجنيس القائل « حتى نجا من فوقه وما نجا » وقول المحدث

ناظراه فيما جنت ناظراه أو دعانى أمت بما أودعانى

ألأمر يرجع إلى اللفظ ؟ أم لأنك رأيت الفائدة ضعفت فى الأول وقويت فى الثانى ، ورأيتك لم يزدك بمذهب ومذهب على أن أسمعك حروفاً مكررة ، تروم لها فائدة فلا تجدها إلا مجهولة منكرة ، ورأيت الآخر قد أعاد عليك اللفظة كأنه يخدعك عن الفائدة وقد أعطاها ، ويوهمك كأنه لم يزدك وقد أحسن الزيادة ووفاها ، فبهذه السريرة صار التجنيس وخصوصا المستوفى منه المتفق فى الصورة من حلى الشعر ومذكوراً فى أقسام البديع ، فقد تبين لك أن ما يعطى التجنيس من الفضيلة أمر لا يتم إلا بنصرة المعنى ، إذ لو كان باللفظ وحده لما كان فيه مستحسن ، ولما وجد فيه إلا معيب مستهجن ، ولذلك ذم الاستكثار منه والولوع به ، لأن المعانى لاتدين فى كل موضع لما يجذبها التجنيس إليه ، إذ الألفاظ خدم المعانى والمعانى هى المالكة سياستها . . . » .

هذا وقد شغل عبدالقاهر باقى الدلائل بأبحاث ، أهمها فى الفصاحة والبلاغة والتقديم والتأخير والفصل والوصل والقصر والأطلاق والكناية والمجاز ، كما شغل باقى الأسرار بأبحاث أهمها التشبيه وباقى أنواع الكناية والمجاز ،

ابن الأثير

فى كتابه « المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر »

بنى ابن الأثير كتابه بعد فاتحته على مقدمة ومقالتين ، فأبان فى الفاتحة مكانة البيان من النظم والنثر ومكانته هو إزاء غيره من البيان ، ثم ضمن المقدمة أصول علم البيان ، أما المقالتان فقد ضمنهما فروع ذلك العلم ، فتكلم فى الأولى على الصناعة اللفظية وتكلم فى الثانية على الصناعة المعنوية ، وهذا عرض سريع موجز لما يهمنا من كل ذلك ، .

أولا — فاتحة الكتاب

عرض فيها لمنزلة البيان من النظم والنثر فجعلها كمنزلة أصول الفقه من الأحكام وأدلتها ، وأخذ يذكر جهود بعض المتقدمين فيه غير راض عنها لمناقص فيها ، ثم خرج من ذلك يقول عن منزلته هو من البيان « كنت قد عثرت على ضروب كثيرة منه فى غضون القرآن الكريم ، ولم أجد أحداً ممن تقدمنى تعرض لذكر شىء منها وهى إذا عدت كانت فى هذا العلم بمقدار شطره ، وإذا نظر إلى فوائدها وجدت محتوية عليه بأسره ، وقد أوردتها هاهنا وشفعتها بضروب أخر مدونة فى الكتب المتقدمة ، بعد أن حذفت منها ما حذفته ، وأضفت إليها ما أضفته ، وهدانى الله لابتداع أشياء لم تكن من قبلى مبتدعة ، ومنحنى درجة الاجتهاد التى لا تكون أقوالها تابعة وإنما هى متبعة ، وكل ذلك يظهر عند الوقوف على كتابى هذا وعلى غيره من الكتب ، إلى أن قال فى تقريظ كتابه مدلا به « وإذا تركت الهوى قلت ، إن هذا الكتاب بديع فى إغرابه ، مفرد بين أصحابه ، وليس له صاحب فى الكتب فيقال إنه من أخدانه أو أترابه » . وقد تعرض فى هذه الفاتحة لبيان مكانة الذوق من علم البيان فقال « واعلم أيها الناظر فى كتابى أن مدار علم البيان على حاكم الذوق السليم ، الذى هو أنفع من ذوق التعليم ، وهذا الكتاب وإن كان فيما يلقيه إليك أستاذاً ، وإذا سألت عما ينتفع به فى فنه قيل لك هذا ،

فان الدربة والأدمان أجدى عليك نفعا ، وأهدى بصراً وسمعا ، وهما يريانك الخبر عيانا ، ويجعلان عسرك من القول إمكانا ، وكل جارحة فيك قلبا ولسانا ، فخذ من هذا الكتاب ما أعطاك ، واستنبط بأدمانك ما أخطاك ، وما مثلى فيما مهدته لك من هذه الطريق إلا كمن طبع سيفاً ووضعه فى يمينك لتقاتل به ، وليس عليه أن يخلق لك قلبا ، فان حمل النصال غير مباشرة القتال . .

وانما يبلغ الانسان غايته ماكل ماشية بالرحل شملال

ثانياً - المقدمه

جعل المقدمة عشرة فصول ، أبان فى الأول أن موضوع علم البيان الفصاحة والبلاغة وأحوالها اللفظية والمعنوية ، وفى هذا الفصل خالف عبد القاهر فى مكانة النحو من الفصاحة والبلاغة فقال إن النحوى ينظر فى دلالة الألفاظ على المعانى من جهة الوضع اللغوى . وهذه دلالة عامة ، وصاحب علم البيان ينظر فى فضيلة تلك الدلالة وهى دلالة خاصة ، والمراد بها أن يكون الكلام على هيئة مخصوصة من الحسن ، وذلك أمر وراء النحو والأعراب ، ألا ترى أن النحوى يفهم معنى الكلام المنظوم والمنثور ويعلم مواقع إعرابه ، ومع ذلك لا يفهم ما فيه من الفصاحة والبلاغة . ومن هنا غلط مفسرو الأشعار فى اقتصارهم على شرح المعنى ، وعلى ما فيها من الكلمات اللغوية وتبيين مواضع الأعراب منها ، دون شرح ماتضمنته من أسرار الفصاحة والبلاغة .

وتكلم فى الثانى عن آلات علم البيان وأدواته وأنها ثمانية ، النحو واللغة والأمثال ومعها الأيام والتآليف المتقدمة لأرباب البيان والأحكام السلطانية والقرآن الكريم والحديث الشريف ثم العروض والقوافى ، والذى يهمنا من ذلك بيانه مكانة الطبع من هذه الآلات والأدوات حيث يقول « وملاك هذا كله الطبع ، لأنه إذا لم يكن ثم طبع فانه لا تغنى تلك الآلات شيئا ، ومثل ذلك كمثل النار الكامنة فى الزناد والحديدة التى يقدح بها ، ألا ترى أنه إذا لم يكن فى الزناد نار لا تفيد تلك الحديدة شيئا . . » . أما الفصلان ، الثالث

الذى جعله فى الحكم على المعانى ، والرابع الذى جعله فى الترجيح بين المعانى ، فهما خير ما عقد فى المقدمة ، كما هو كلامه عنهما حيث يقول عن الثالث ، وفائدة هذا الفصل الاحاطة بأساليب المعانى على اختلافها وتباينها ، وصاحب هذه الصناعة مفتقر إلى هذا الفصل والذى يليه بخلاف غيرهما من هذه الفصول المذكورة ولا سيما مفسرى الأشعار فانهم به أعنى ، وحيث يقول عن الرابع ، وهذا الفصل ميزان الخواطر الذى يوزن به نقد درهمها ودينارها ، بل المحك الذى يعلم منه مقدار عيارها ، ولا يزن به إلا ذو فكرة متقدة ولمحة منتقدة ، فليس كل من حمل ميزانا سمى صرافا ولا كل من وزن به سمى عرافا ، وهذا عرض لبعض ماعرض بالفصلين يرى صدق ما ذكر عنهما ،

ذكر فى الفصل الثالث أن الأصل فى المعنى أن يحمل على ظاهر لفظه ، ومن يذهب الى التأويل يحتاج إلى دليل ، وأن المعنى مع التأويل يفهم معه غيره ، وهذا الغير إما أن يكون الضد أو خلافه ، فهذه أقسام ثلاثه ولا رابع لها . فالأول وهو ما لا تأويل فيه يقع عليه أكثر الأشعار ولا يجرى فى الدقة واللطافة مجرى القسمين الآخرين . والثانى وهو ما يفهم منه المعنى وضده قليل الوقوع جداً وهو من أظرف التأويلات المعنوية ، لأن دلالة اللفظ على المعنى وضده أغرب من دلالته على المعنى وغيره مما ليس بضد ، ويجرى على هذا النهج من الشعر قول المتنبى فى كافور .

وأظلم أهل الظلم من بات حاسداً لمن بات فى نعمائه يتقلب

فهذا البيت يستخرج منه معنيان ضدان، أحدهما أن المنعم عليه يحسد المنعم والآخر أن المنعم يحسد المنعم عليه ، وأكثر ما كان المتنبى يستعمل هذا القسم فى قصائده الكافوريات ، والقسم الثالث وسط بينهما فى القلة والكثرة ، ومن الدقيق فى هذا القسم قول المتنبى يمدح عضد الدولة .

لو فطنت خيله لنائله لم يرضها أن تراه يرضاها

فهذا يستنبط منه معنيان غير متضاربين ، أحدهما أن خيله لو علمت مقدار عطاياه ونفاستها لاترضى أن تكون من جملتها لوقوعها دون تلك النفاسة

والآخر أنها لو علمت أنه سيهبها من جملة ما يهب لما رضيت ذلك منه ، إذ هى تكره خروجها عنه » .

وذكر فى الفصل الرابع وهو مبنى على الثالث ، أن القسم الأول وهو ما لا تأويل فيه لاتعلق للترجيح به إذ، لايحتمل إلا وجها واحداً ، أما الثانى وهو ما يحتمل معنيين فلا يخلو الترجيح بينهما من ثلاثة أقسام لا رابع لها . إذ اللفظ إما أن يكون حقيقة فى أحدها مجازاً فى الآخر أو حقيقة فيهما جميعا أو مجازاً فيهما كذلك ، فالترجيح بين الحقيقة والمجاز يعلم ببديهة النظر لمكان الاختلاف بينهما ، وذلك كقوله تعالى « ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون ، حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون » فالجلود هنا قد تراد حقيقة وقد يراد بها الفروج وهذا هو المعنى البلاغى الذى يرجح المجاز على الحقيقة لما فيه من لطف الكناية عن المكنى عنه ، والترجيح بين الحقيقتين أو بين المجازين يحتاج إلى النظر ، ومثاله بين الحقيقتين قول النبى ﷺ « التمسوا الرزق فى خبايا الأرض » إذ الخبايا تكون الكنوز وتكون الغراس ، والثانى أرجح لأن مواضع الكنوز غير معلومة حتى تلتمس والنبى لا يأمر بذلك بخلاف الغراس ، ومثاله بين المجازين قول أبى تمام :

قد بلونا أبا سعيد حديثا ... وبلونا أبا سعيد قديما
ووردناه ساحلا وقليبا ... ورعيناه بارضا وجميما
فعلمنا أن ليس إلا بشق الـ ... أنفس صار الكريم يدعى كريما

والشاهد فى الساحل وهو البحر والقليب وهو البئر ، وليس هذا المعنى الحقيقى مرادا ولكن المراد المعنى المجازى ، وهو إما أنه الكثير القليل لفضل ماء البحر على ماء البئر ، واما أنه غير السبب والسبب إذ ماء البحر لا يحتاج فى جلبه الى مايحتاج اليه ماء البئر من آلة ، وهذا المعنى الثانى هو المرجح على الأول ، لأنه أدل على بلاغة القائل لسلامته من هجنة التكرار مع عجز البيت فى قوله « بارضا وجميما » ، والأول النبت أول نجومه والثانى حين يتم نموه أى

القلة والكثرة أيضا ، كما هو أدل على مدح المقول فيه لتعداد حالاته الأربع من تبرع ونوال وإكثار وإقلال . أما بقية الفصول من الخامس إلى العاشر فكان القول فيها فى مسائل علمية أو عادية ويمكن الرجوع إليها هناك .

ثالثا – المقالة الاولى

ضمن المقالة الأولى الكلام على الصناعة اللفظية كما سبقت الأشارة ، وقسمها قسمين ، أول تكلم فيه على اللفظة المفردة ، وثانيا تكلم فيه على الألفاظ المركبة ، وقدم للقول تصديرا بدأه بقوله « اعلم أن صاحب هذه الصناعة يحتاج فى تأليفه الكلام الى ثلاثة أشياء ، الأول اختياره الألفاظ المفردة وحكم ذلك حكم اللآلىء المبددة فانها تتخير وتنتقى قبل النظم ، والثانى نظم كل كلمة مع أختها المشاكلة لها لئلا يجىء الكلام قلقا نافرا عن مواضعه ، وحكم ذلك حكم العقد المنظوم فى اقتران كل لؤلؤة منه بأختها المشاكلة لها ، والثالث الغرض المقصود من ذلك الكلام على اختلاف أنواعه وحكم ذلك حكم الوضع الذى يوضع فيه العقد المنظوم ، فتارة يجعل إكليلا على الرأس وتارة يجعل قلادة فى العنق وتارة يجعل شنفا فى الأذن ، ولكل موضع من هذه المواضع هيئة من الحسن تخصه ، فهذه ثلاثة أشياء لا بد للخطيب والشاعر من العناية بها ، وهى الأصل المعتمد عليه فى تأليف الكلام من النظم والنثر ، فالأول والثانى من هذه الثلاثة المذكورة هما المراد بالفصاحة ، والثلاثة بجملتها هى المراد بالبلاغة ، وهذا الوضع يضل فى سلوك طريقه العلماء بصناعة صوغ الكلام من النظم والنثر ، فكيف الجهال الذين لم تنفحهم رائحة ، ومن الذى يؤتيه الله فطرة ناصعة يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار ، حتى ينظر الى أسرار ما يستعمله من الألفاظ فيضعها فى مواضعها . . »

وأخذ بعد هذا التصدير يتكلم على الكلمة وهى مفردة من حيث إنها قد تروق فى كلام وتكره فى آخر تفضلها فيه غيرها ، ومن حيث الحسن والقبح الذاتيان فيها وضرورة تجنب بعض الحروف فى بنيتها ، ومن حيث الجزالة والرقه ، ومن حيث الصون والابتذال ، ومن حيث التخصص

والاشتراك ، الى غير هذه النواحى مما أفاض فيه وأكثر من الاستشهاد له فأجاد ،
ثم أخذ يتكلم على الألفاظ وهى مركبة فكان مما قال « قدمنا القول فى شرح
أحوال اللفظة المفردة وما يختص بها ، وأما إذا صارت مركبة فان لتركيبها
حكما آخر ، وذاك أنه يحدث عنه من فوائد التأليف والامتزاجات ما يخيل
للسامع أن هذه الألفاظ ليست تلك التى كانت مفردة ، ومثال ذلك كمن أخذ
لآلىء ليست من ذوات القيم الغالية فأحسن الوضع فى تأليفها حتى خيل
للناظر بحسن تأليفه وإتقان صنعته أنها ليست تلك التى كانت منثورة مبددة ،
وفى عكس ذلك من يأخذ لآلىء من ذوات القيم الغالية ويفسد تأليفها فيضع
من حسنها ، فكذلك يجرى حكم الألفاظ فى التراكيب ، وهذا موضع شريف
ينبغى الالتفات اليه والعناية به . ثم أرجع تأليف الألفاظ الى أنواع ثمانية
تكلم على كل منها ، وهذا عرض لما ذكر فى التجنيس الذى اعتدنا التعرض لما
قاله غيره فيه ، قال عنه إنه غرة شادخة فى وجه الكلام ، والعلماء من أرباب
هذه الصناعة قد تصرفوا فيه فغربوا وشرقوا ولا سيما المحدثين منهم الذين
ألفوا فيه ، وعرفه بأن يكون اللفظ واحدا والمعنى مختلفا ، وان كان سمى به
أيضا ما تشابهت فيه الألفاظ ، ومثل للقسم الأول الحقيقى بأمثلة جيدة أكثر
منها ولا سيما لأبى تمام كقوله :

كم أحرزت قضب الهندى مصلتة ... تهتز من قضب تهتز فى كثب
بيض اذا انتضيت من حجبها رجعت ... أحق بالبيض أبدانا من الحجب

كما مثل للمستكره منه وبخاصة لأبى تمام أيضا كقوله :

ويوم أرشق والهيجاء قد رشقت ... من المنية رشقـــا وابلا قصفا

أما ما سمى بالتجنيس مما تشابهت فيه الألفاظ وليس منه على الحقيقة ،
فقد جعله ستة أقسام عرف بها ومثل لها على نحو ما فعل علماء البديع ولكنه
أكثر الأمثلة فليرجع اليها هناك .

رابعا ــ المقالة الثانيه

جعل المقالة الثانية للصناعة المعنوية وقد استغرقت نحو الثلثين من الكتاب فقد ذكر فيها ثلاثين نوعا لتلك الصناعة ولكنا سنقف القول على نوعين اثنين فقط تباعا لما جرينا عليه حيث تكلمنا على سلفه عبد القاهر هما الاستعارة. وقد بدأ بها حيث جعلها النوع الأول، ثم السرقة ومعها الموازنة وقد ختم بهما حيث جعلهما النوع الثلاثين، موجزين فى الأول وباسطين فى الأخير لوثيق علاقته بالنقد.

ــ الاستعاره ـ

قدم للكلام على الاستعارة بالكلام على المجاز، فذكر أن الذى انكشف له بالنظر الصحيح أن المجاز قسمان، توسع فى الكلام وتشبيه، وأن التشبيه ضربان تام يذكر فيه المشبه والمشبه به، وهو الذى أطلق عليه اسم التشبيه، وناقص حذف منه المشبه به واقتصر على ذكر المشبه، وهو الذى سمى استعارة وعلى ذلك عرف الاستعارة بأنها نقل المعنى من لفظ الى لفظ لمشاركة بينهما مع طى ذكر المنقول إليه كقول الشاعر.

فرعاء إن نهضت لحاجتهـــا عجل القضيب وأبطأ الدعص

فانه أراد تشبيه القد بالقضيب، والردف بالدعص، فترك ذكر التشبيه مظهرا ومضمرا وجاء الى المشبه وهو القد فأعاره المشبه به وهو القضيب، وإلى الردف فأعاره الدعص، والقرينة المفهمة هى قوله « فرعاء إن نهضت لحاجتها» لأن ذلك لا يكون الا امرأة ، فأساس الاستعارة أن يطوى ذكر المشبه أى المستعار لهمع أداة التشبيه. أما الذى جعل من التشبيه كقولهم «وجهها قمر» فلم يطو فيه الا ذكر الأداة، فهو كالتشبيه المظهر الأداة الذى لا شبهة فيه مع الاستعارة، على أنه ذكر أن من الكلام ما يجوز حمله على الاستعارة وعلى التشبيه المضمر الأداة باختلاف القرينة، وذاك حين يرد الكلام محمولا على ضمير من تقدم ذكره ، كقول البحترى.

اذا اسفرت أضاءت شمس دجن ومالت فى التعطف غصن بان

فانك إن نصبت شمس دجن وغصن بان ، بالحمل على الضمير فى أضاءت كان ذلك تشبيها لذكر المشبه، وان ذكرتهما بالرفع كان هذا استعارة لانتفاء المشبه بانتفاء الحمل . ثم عاد إلى التوسع المجازى فقال ، إنه ما يقع عن غير مشاركة ، وإنه ضربان، أحدهما أن يرد على وجه الاضافة وهو قبيح الاستعمال لأنه يؤول على التشبيه المضمر الأداة دون اشتراك كقول أبى نواس .

بح صوت المـــال مما منـــك يشكو ويصيح

وكذلك قوله :

ما لرجل المـــال أمست تشتكى منك الكلالا

فاضافة الصوت الى المال قبيحة وإضافة الرجل اليه أقبح ، والثانى ماورد على غير وجه الأضافة وهو حسن كقول أبى تمام فى مخاطبة الربع :

أميدان لهوى من أتاح لك البلى فأصبحت ميدان الصبا والجنائب

ووجه حسنه يرجع الى أنه يبغى مساءلة الأهل الذين كانوا فيه .

هذا وقد استحسن بعد الذى ذكر ، أن يفعل فعل عبدالقاهر فى الألمام بجهرة من أمثلة الاستعارة التى يستفيد بها المتعلم مالا يستفيده بذكر الحد والحقيقة ، فأتى ببعض الآيات القرآنية كقوله تعالى « كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور» ، وببعض الأحاديث النبوية كقوله ﷺ « لاتستضيئوا بنار المشركين » يعنى مشورتهم ، وببعض المأثور عن العرب كقولهم عند رؤية الهلال « لا مرحبا باللجين » ، وبعدها أتى على جمهرة كبيرة من الاشعار تقارب العشرين مثلا ؛ كقول مسكين الدارمى .

لحافى لحاف الضيف والبيت بيته ولم يلهنى عنه غزال مقنع

أحدثه إن الحديث من القرى وتعلم نفسى أنه سوف يهجع

يعنى بالغزال المقنع المرأة الحسناء . وكقول ديك الجن يعنى بواطن أمره وظواهره .

أسرى طريدا للحياء من التى زعموا ولست لرهبة بطريد
وغدا تبين ما براءة ساحتى لو قد نفضت تهائمى ونجودى

وكقول المتنبي وهو من المليح النادر، يعنى خيل الممدوح:

وأصبحت بقرى هنزيط جائلة ترعى الظبى فى خصيب نبته اللمم
فما تركن بها خلدا له بصر تحت التراب ولا بازا له قدم
ولا هزبرا له من درعه لبد ولا مهاة لها من شبهها حشم

ثم قول الشريف الرضى:

إذا أنت أفنيت العرانين والذرى رمتك الليالى من يد الخامل الغمر
وهبك اتقيت السهم من حيث يتقى فمن ليد ترميك من حيث لاتدرى

وأخيرا قال وهو ما نختم به ما ذكرناه عنه فى الاستعارة «وإذ قد تبينت أن الاستعارة لاتكون إلا بحيث يطوى ذكر المستعار له فانها لا تجيء إلا ملائمة مناسبة، لاتوجد فيها مباينة ولاتباعد، لأنها لاتذكر مطوية إلابسياق المناسبة بين المستعار منه والمستعار له، ولو طويت ولم تكن هناك مناسبة بينهما لعسر فهمها ولم يبن المراد منها».

السرقه والموازنه

أفاض ابن الأثير القول فى السرقة والموازنة حتى شغل بذلك خمسا وعشرين صفحة من كتابه، وهذا تصوير لما قال بطريق النقل عنه حينا والتلخيص لما ذكر حينا آخر :—

السرقة — قال يقدم للسرقة «ذهبت طائفة من العلماء إلى أنه ليس لقائل أن يقول، إن لأحد من المتأخرين معنى مبتدعا، فان قول الشعر قديم منذ نطق باللغة العربية وإنه لم يبق معنى من المعانى إلا وقد طرق مرارا، وهذا القول وإن دخل فى حيز الامكان لا يلتفت إليه، لأن الشعر من الأمور المتناقلة، والذى نقلته الأخبار وتواردت عليه أن العرب كانت تنظم المقاطيع من الأبيات فيما يعن لها من الحاجات، ولم تزل الحال على هذه الصورة إلى عهد امرىء القيس وهو قبل الاسلام بمائة سنة زائد افناقصا، فقصد القصائد

وهو أول من قصد ، ولو لم يكن له معنى اختص به سوى أنه أول من قصد القصائد لكان فى ذلك كفاية ، وأى فضيلة أكبر من هذه الفضيلة ، ثم تتابع المقصدون واختير من القصائد تلك السبع التى علقت على البيت ، وانفتح للشعراء هذا الباب فى التقصيد وكثرت المعانى المقولة بسببه ، ولم يزل الأمر ينمى ويزيد ويؤتى بالمعانى الغريبة ، واستمر ذلك إلى عهد الدولة العباسية وما بعدها إلى الدولة الحمدانية ، فعظم الشعر وكثرت أساليبه وتشعبت طرقه وكان ختامه على الثلاثة المتأخرين ، وهم أبو تمام حبيب بن أوس وأبو عبادة الوليد بن عبيد البحترى وأبو الطيب المتنبى . فاذا قيل إن المعانى المبتدعة سبق إليها ولم يبق منها معنى مبتدع عورض ذلك بما ذكرته ، والصحيح أن باب الابتداع للمعانى مفتوح إلى يوم القيامة ، ومن الذى يحجر على الخواطر وهى قاذفة بما لا نهاية له ، إلا أن من المعانى ما يتسارى الشعراء فيه ولا يطلق عليه اسم الابتداع لأول قبل آخر ، لأن الخواطر تأتى به من غير حاجة إلى اتباع الآخر الأول ، كقولهم فى الغزل :

عفت الديار وماعفت آثارهن من القلوب

وقولهم إن الطيف يجود بما يبخل به صاحبه وإن الواشى لو علم بمزار الطيف لساءه ، وكقولهم فى المديح ان عطاءه كالبحر وكالسحاب وإنه لا يمنع عطاء اليوم عطاء غد وإنه يجود ابتداء من غير مسألة ، وكقولهم فى الرثاء إن هذا الرزء أول حادث وإنه استوى فيه الأباعد والاقارب وان الذاهب لم يكن واحدا وإنما كان قبيلة وإنه بعد هذا الذاهب لا يعد للمنية ذنب ، وأشباه تلك ، وكذلك يجرى الامر فى غير ما أشرت إليه من معان ظاهرة تتوارد الخواطر عليها من غير كلفة وتستوى فى إيرادها ، فمثل هذه لا يطلق على الآخر فيها اسم السرقة من الاول ، وإنما يطلق اسم السرقة فى معنى مخصوص كقول أبى تمام :

لا تنكروا ضربى له من دونه مثلا شرودا فى الندى والباس

فالله قد ضرب الأقل لنوره مثلا من المشكاة والنبرس

وهذا معنى مخصوص ابتدعه أبو تمام ، فانه لما أنشد المعتصم قبل خلافته قصيدته التى مطلعها

ما فى وقوفك ساعة من باس نقضى زمام الاربع الادراس

وانتهى إلى قوله

إقدام عمرو فى سماحة حاتم فى حلم أحنف فى ذكاء اياس

قال الحكيم الكندى وأى فخر فى تشبيه ابن أمير المؤمنين بأجلاف العرب فأطرق أبو تمام ثم أنشد هذين البيتين معتذرا من تشبيهه بهؤلاء ، وهذا معنى يشهد الحال أنه ابتدعه ، فمن أتى من بعده بهذا المعنى أو بجزء منه فانه يكون سارقا ، وكذلك قول المتنبىء فى عضد الدولة وولديه « أبى الفوارس وأبى دلف »

وأنت الشمس تبهر كل عين فكيف وقد بدت معها اثنتان

فعاشا عيشة القمرين يحيا بضوءهما ولا يتحاسدان

ولا ملكا سوى ملك الاعادى ولا ورثا سوى من يقتلان

وكان ابنا عدو كاثراه له ياءى حروف أنيسيان

وهذا معنى لأبى الطيب وهو الذى ابتدعه ، يعين أن زيادة أبناء عدوه كزيادة التصغير لأنها زيادة نقص . وما ينبغى أن يقال إن ابن الرومى ابتدع هذا المعنى الذى هو

يشكى المحب ويلفى الدهر شاكيه كالقوس تصمى الرمايا وهى مرنان

كما زعم بعض علماء البيان ، لأنه ماخوذ من المثل « يلدغ ويصى » يضرب لمن يبتدىء بالأذى ثم يشكو . والذى عندى فى السرقات أنه متى أورد الآخر شيئا من الفاظ الاول فى معنى من المعانى ولو لفظة واحدة كان ذلك من أدل الدلائل على سرقته ... » .

وبعد أن أبان فى إفاضة أن السرقات الشعرية لا يمكن الوقوف عليها إلا بحفظ الأشعار الكثيرة التى لا يحصرها عد ، وبرهن على ذلك واستشهد له ، أخذ يشرح ألوان السرقات ويكثرها من الأمثلة . وقد جعل تلك الألوان

ثلاثة النسخ والمسخ والسلخ .

فقال عن النسخ إنه أخذ اللفظ والمعنى برمته من غير زيادة فيه عليه ، مأخوذ من نسخ الكتاب . ولا يكون الا فى أخذ اللفظ والمعنى جميعا أو فى أخذ المعنى وأكثر اللفظ ، وعلى ذلك فهو ضربان ، الأول يسمى وقوع الحافر على الحافر كقول طرفة .

وقوفا بها صحبي على مطيهم يقولون لا تهلك أسى وتجلد

مع قول امرىء القيس .

وقوفا بها صحبي على مطيهم يقولون لا تهلك أسى وتحمل

والثانى كقول أبى تمام .

محاسن أوصاف المغنيين جمة وما قصبات السبق الا لمعبد

مع قول بعض المتقدمين .

أجاد طويس والسريجى بعده وما قصبات السبق الا لمعبد

وقال عن المسخ إنه إحالة المعنى إلى مادونه ، مأخوذ من مسخ الآدميين قردة ، فهو قلب الصورة الحسنة الى صورة قبيحة كقول المتنبي .

يرى أن ما مابان منك لضارب بأقتل ممـــا بان منك لعائب

مع قول أبى تمام .

فتى لا يرى أن الفريصة مقتل ولـكن يرى أن العيوب مقاتل

فهو وان لم يشوه المعنى فقـــد شوه الصورة ، ومثاله فى ذلك كمن أودع الوشى شملا وأعطى الورد جعلا ، وهذا من أرذل السرقات .

ثم قال عن السلخ إنه أخذ بعض المعنى ، مأخوذ من سلخ الجلد الذى هو بعض الجسم المسلوخ ، وقد جعله ضروبا عد منها أحد عشر :—

١ — أن يؤخذ المعنى ويستخرج منه مايشبهه ولايكون هو إياه ، وهذا من أدق السرقات مذهبا وأحسنها صورة ولا يأتى إلا قليلا كقول المتنبي .

وإذا أتتك مذمتى من ناقص فهى الشهادة لى بأنى كامل

مع قول بعض شعراء الحماسة .

لقد زادني حبا لنفسي أنني بغيض الى كل امرىء غير طائل

والمعرفة بأن هذا أصل ذاك عسرة غامضة لا تتبين إلا لمن أعرق فى ممارسة الأشعار وغاص فى استخراج المعانى ، وبيانه أن الأول يقول إن بغض الذى هو غير طائل إياى مما زاد نفسى حبا الى ، والمتنبى يقول إن ذم الناقص إياى شاهد بفضلى .

٢ — أن يؤخذ المعنى مجردا من اللفظ ، وذلك مما يصعب جدا ولا يكاد يأتى إلا قليلا كقول أبى تمام :

فتى مات بين الطعن والضرب ميتة تقوم مقام النصر إذ فاته النصر

مع قول عروة بن الورد .

ومن يك مثلى ذا عيال ومقترا من المال يطرح نفسه كل مطرح

ليبلغ عـذرا أو ينال رغيبة ومبلغ نفس عذرها مثل منجح

فعروة جعل اجتهاده فى طلب الرزق عذرا يقوم مقام النجاح ، وأبو تمام جعل الموت فى الحرب الذى هو غاية اجتهاد المجتهد فى لقاء العدو قائما مقام الانتصار ، وكلا المعنيين واحد غير أن اللفظ مختلف .

٣ — أن يؤخذ المعنى ويسير من اللفظ ، وهذا من أقبح السرقات وأظهرها شناعة على السارق كقول البحترى .

فوق ضعف الصغير إن وكل الأمـر اليه ودون كيـد الكبار

مع قول أبى نواس

لم يخف من كبر عما يراد به من الأمور ولا أزرى من الصغر

٤ — أن يؤخذ المعنى فيعكس ، وذلك حسن يكاد يخرجه حسنه عن حد السرقة كقول المتنبى .

أأحبـه وأحب فيه ملامة إن الملامة فيه من أعدائه

مع قول أبى الشيص .

أجد الملامة فى هواك لذيذة شغفا بذكرك فليلمنى اللوم

وهـذا من السرقات الخفية جدا ولأن يسمى ابتداعا أولى من أن يسمى سرقة .

٥ — أن يؤخذ بعض المعنى كقول أبى تمام :

تدعى عطاياه وفرا وهى إن شهرت كانت فخارا لمن يعفوه مؤتنفا

ما زلت منتظرا أعجوبة زمنا حتى رأيت سؤالا يجتنى شرفا

مع قول أمية بن أبى الصلت .

عطاؤك زين لامرىء إن حبوته ببذل وما كل العطاء يزين

وليس بشين لامرىء بذل وجهه اليك كما بعض السؤال يشين

فأنه أتى بمعنيين، أحدهما أن عطاءك زين والآخر أن عطاء غيرك شين ، وأبو تمام أتى بالمعنى الأول لا غير .

٦ — أن يؤخذ المعنى فيزاد عليه معنى أخر كقول مسلم .

إن قصر الرمح لم يمش الخطا عددا أو عرد السيف لم يهمم بتعريد

مع قول الأخنس بن شهاب .

إذا قصرت أسيافنا كان وصلها خطانا إلى أعدائنا فنضارب

٧ — أن يؤخذ المعنى فيكسى عبارة أحسن من العبارة الأولى ، وهذا هو المحمود الذى يخرج به حسنه عن باب السرقة كقول البحترى .

اذا احتربت يوما ففاضت دماؤها تذكرت القربى ففاضت دموعها

مع قول أبى تمام .

جذلان من ظفر حران أن رجعت مخضوبة منكم أظفاره بدم

٨ — أن يؤخذ المعنى ويسبك سبكا موجزا . وذلك من أحسن السرقات لما فيه من الدلالة على بسطة الناظم فى القول وسعة باعه فى البلاغة كقول سلم الخاسر .

من راقب الناس مات هما وفاز باللذة الجسور

مع قول أستاذه بشار ، وبين البيتين لفظتان فى التأليف .

من راقب الناس لم يظفر بحاجته وفاز بالطيبات الفاتك اللهج

٩ — أن يكون المعنى عاما فيجعل خاصا أو خاصا فيجعل عاما ، وهو من السرقات التى يسامح صاحبها ، فمن العام الذى جعل خاصا قول أبى تمام .

أألوم من بخلت يداه وأغتدى للبخل تربا ساء ذاك صنيعا

مع قول أبى الأسود الدؤلى .

لا تنه عن خلق وتأتى مثله عار عليك اذا فعلت عظيم

ومن الخاص الذى جعل عاما قول المتنبى .

ومايؤلم الحرمان من كف حارم كما يؤلم الحرمان من كف رازق

مع قول أبى تمام .

ولو حاردت شول عذرت لقاحها ولـكن منعت الدرو الضرع حافل

١٠ — أن يؤخذ المعنى فيضرب له مثال يوضحه كقول المتنبى .

ومن الخير بطء سيبك عنى أسرع السحب فى المسير الجهام

مع قول أبى تمام .

هو الصنع إن يعجل فنفع وان يرث فللريث فى بعض المواطن أنفع

وهذا من المبتدع لا من المسروق ، فما أحسن ماأتى المتنبى بهذا المعنى فى المثال المناسب له .

١١ — أن يتحد الطريق ويختلف المقصد ، فمن ذلك قو النابغة .

إذا ماغزوا بالجيش حلق فوقهم عصائب طير تهتدى بعصائب

جوانح قد أيقن أن قبيله إذا ما التقى الجمعان أول غالب

وهذا المعنى قد توارد عليه الشعراء قديما وحديثا . ولم أجد أحدا أغرب فيه فسلك هذه الطريق مع اختلاف مقصده اليها إلا مسلم بن الوليد حيث يقول .

أشربت أرواح العدا وقلوبها خوفا فأنفسها اليـك تطـير

لو حاكمتك فطالبتك بذحلها شهدت عليك ثعالب ونسور

فهذا من المليح البديع الذى فضل به مسلم غيره فى هـــذا المعنى . ولما انتهى الأمر فيه الى المتنبى أغرب وأبدع وحاز الأحسان بجملته وصار كأنه مبتدع لهذا المعنى دون غيره فقال .

تفدى أتم الطير عمرا سلاحه نسور الملا أحداثها والقشاعم

وما ضرها خلق بغـير مخالب وقد خلقت أسيافه والقوائم

ثم أورد هذا المعنى فى موضع آخر فقال .

سحاب من العقبان ترجف تحتها سحاب اذا استقت سقتها صوارمه

وهذا معنى قد حوى طرفى الأغراب والأعجاب ، وقال فى موضع آخر

وذى لجب لا ذو الجناح أمامه بناج ولا الوحش المثار بسالم

تمر عليه الشمس وهى ضعيفة تطالعه من بين ريش القشاعم

اذا ضوءها لاقى من الطير فرجة تدور فوق البيض مثل الدراهم

وهـــذا من إعجاز أبى الطيب المشهور ، ولو لم يكن له من الأحسان فى شعره الا هذه الأبيات لاستحق بها فضيلة التقدم ،

الموازنة — عنى ابن الأثير بالموازنة عنايته بالسرقة ، وتجلت هذه العناية منه فى ناحيتين بارزتين ، إحداهما ما أجراه من قول بين الثلاثة الشعراء أبى تمام والبحترى والمتنبى ، والأخرى ما عقد من موازنة تطبيقية فى بعض قصائدهم وقد يكون معهم غيرهم ، وهذا طرف من كلتيهما .

قال يقدم للموازنة بينهم ويوازن ، لما نصبت نفسى للخوض فى علم البيان ورمت أن أكون معدودا من علمائه ، علمت أن هذه الدرجة لا تنال إلا بنقل ما فى الكتب إلى الصدور ، والاكتفاء بالمحفوظ عن المسطور .

ليس بعلم ما حوى القمطر ما العلم إلا ما حواه الصدر

ولقد وقفت من الشعر على كل ديوان ومجموع ، وأنفدت شطرا من العمر فى المحفوظ منه والمسموع ، فألفيته بحرا لا يوقف على ساحله ، وكيف ينتهى إلى إحصاء قول لم تحص أسماء قائله ، فعند ذلك اقتصرت منه على ما تكثر فوائده ، وتتشعب مقاصده ، ولم أكن ممن أخذ بالتقليد والتسليم ، واتباع من قصر نظره على الشعر القديم ، إذ المراد من الشعر إنما هو إيداع المعنى الشريف ، فى اللفظ الجزل واللطيف ، فمتى وجد ذلك فكل مكان خيمت فهو بابل ، وقد اكتفيت فى هذا بشعر أبى تمام حبيب بن أوس وأبى عبادة الوليد البحترى وأبى الطيب المتنبى ، وهؤلاء هم لات الشعر وعزاه ومناته ، الذين ظهرت على أيديهم حسناته ومستحسناته ، وقد حوت أشعارهم

غرابة المحدثين إلى فصاحة القدماء ؛ وجمعت بين الأمثال السائرة وحكمة الحكماء .

فأما أبو تمام فانه رب معان ، وصيقل ألباب وأذهان ، وقد شهد له بكل معنى مبتكر ، لم يمش فيه على أثر ، فهو غير مدافع عن مقام الأغراب ، الذى برز فيه على الاضراب ، ولقد مارست من الشعر كل أول وأخير ، ولم أقل ماأقول فيه إلا عن تنقيب وتنقير ، فمن حفظ شعر الرجل وكشف عن غامضه ، وراض فكره برائضه ، أطاعته أعنة الكلام ، وكان قوله فى البلاغة ما قالت حذام ، فخذ منى فى ذلك قول حكيم ، ففوق كل ذى علم عليم .

وأما أبو عبادة البحترى فانه أحسن فى سبك النظم على المعنى ، وأراد أن يشعر فغنى ، ولقد حاز طرفى الرقة والجزالة على الاطلاق ، فبينا يكون فى شظف نجد إذ تشبث بريف العراق ، سئل أبو الطب المتنبى عنه وعن أبى تمام وعن نفسه فقال، أنا وأبو تمام حكيمان والشاعر البحترى ، ولعمرى إنه أنصف فى حكمه وأعرب بقوله هذا عن متانة علمه ، فان أبا عبادة أتى فى شعره بالمعنى المقدود من الصخرة الصماء ، واللفظ المصنوع من سلاسة الماء ، فأدرك بذلك بعد المرام ، مع قربه إلى الافهام ، وما أقول إلا أنه أتى فى معانيه بأخلاط الغالية ، ورقى فى ديباجة اللفظ إلى الدرجة العالية .

أما أبو الطيب المتنبى فانه أراد أن يسلك مسلك أبى تمام فقصر عنه خطاه ولم يعطه الشعر من قياده ما أعطاه ، ولكنه حظى فى شعره بالأمثال والحكم واختص بالابداع فى وصف القتال ، وأنا أقول قولا لست فيه متأثما ولا منه ملثما ، وذاك أنه إذا خاض فى وصف معركة كان لسانه أمضى من نصالها ، وأشجع من أبطالها ، وقامت أقواله لك مقام أفعالها ، حتى تظن الفريقين قد تقابلا ، والسلاحين قد تواصلا ، فطريقه فى ذلك تضل بسالكه ، وتقوم بعذر تاركه ، ولا شك أنه كان يشهد الحرب مع سيف الدولة بن حمدان فيصف لسانه ، ما أدى إليه عيانه ، ومع هذا فانى رأيت الناس عادلين فيه

عن سنن التوسط ، فأما مفرط فى وصفه وأما مفرط ، وهو وإن انفرد بطريق صار أبا عذره ، فان سعادة الرجل كانت أكبر من شعره ، وعلى الحقيقة فانه خاتم الشعراء ، ومهما وصف به فهو فوق الوصف وفوق الاطراء ، ولقد صدق فى قوله من أبيات يمدح بها سيف الدولة :

لا تطلبن كريما بعد رؤيته   إن الكرام بأسخاهم يدا ختموا

ولا تبال بشعر بعد شاعره   قد أفسد القول حتى أحمد الصمم

ولما تأملت شعره بعين المعدلة البعيدة عن الهوى ، وعين المعرفة التى ماضل صاحبها وما غوى ، وجدته أقسامه خمسة ، خمس فى الغاية التى انفرد بها دون غيره ، وخمس من جيد الشعر الذى يساويه فيه غيره ، وخمس من متوسط الشعر ، وخمس دون ذلك ، وخمس فى الغاية المتقهقرة التى لا يعبأ بها وعدمها خير من وجودها ، ولو لم يقلها لوقاه الله شرها ، فانها هى التى ألبسته لباس الملام ، وجعلت عرضه شارة لسهام الاقوام .

ولسائل هاهنا أن يسأل ويقول، ولم عدلت إلى شعر هؤلاء الثلاثة دون غيرهم فأقول ، إنى لم أعدل اليهم اتفاقا وإنما عدلت اليهم نظراً واجتهادا . وذلك أنى وقفت على أشعار الشعراء قديمها وحديثها حتى لم أترك ديوانا لشاعر مفلق يثبت شعره على المحك إلا عرضته على نظرى ، فلم أجد أجمع من ديوان أبى تمام وأبى الطيب للمعانى الدقيقة ولا أكثر استخراجا منهما للطيف الاغراض والمقاصد ، ولم أجد أحسن تهذيبا للالفاظ من أبى عبادة ولا أنقش ديباجة ، ولا أبهج سبكا منه ، فاخترت حينئذ دواوينهم لاشتمالها على محاسن الطرفين من المعانى والالفاظ ، ولما حفظتها ألغيت ما سواها مع ما بقى على خاطرى من غيرها .

وقال فيما عقد من موازنات تطبيقية بينهم ومعهم أحيانا غيرهم ، « اعلم أن من أبين البيان فى المفاضلة بين أرباب النظم والنثر ، أن يتوارد اثنان من الشعراء على مقصد من المقاصد يشتمل على عدة معان كتوارد البحترى والمتنبى على وصف الأسد ، وقصيدتاهما مشهورتان ، فأول إحداهما :

أجدك ما ينفك يسرى لزينبا خيال إذ آب الظلام تأوبا

وأول الأخرى :

فى الخد إن عزم الخليط رحيلا مطر تزيد به الخدود محولا

وهذا أبين فى المفاضلة من التوارد على معنى واحد يصوغه هذا فى بيت من الشعر أو بيتين ، ويصوغه الآخر فى مثل ذلك ، فان بعد المدى يظهر مافى السوابق من الجواهر ، وعنده يتبين ربح الرابح وخسر الخاسر .

أما البحترى فانه ألم بطائفة مما ذكر بشر بن عوانة فى أبياته الرائية التى أولها :

أفاطم لو شهدت ببطن خبت وقد لاقى الهزبر أخاك بشرا

وهى من النمط العالى الذى لم يأت أحد بمثله ، وكل الشعراء لم تسم قرائحهم إلى استخراج معنى ليس بمذكور فيها ، ولولا خوف الاطالة لأوردتها بجملتها ، لكن لغرض إنما هو المفاضلة بين البحترى وأبى الطيب فيما أورداه من المعانى فى هذا المقصد المشار إليه ، فمما جاء للبحترى فى قصيدته :

وما نقم الحساد إلا أصالة لديك وفعلا أريحيا مهذبا

وقد جربوا بالأمس منك عزيمة فضلت بها السيف الحسام المجربا

غداة لقيت الليث والليث مخدر يحدد نابا للقاء ومخلبا

إذا شاء غادى عانة أو غدا على عقائل سرب أو تقنص ربربا

شهدت لقد أنصفته يوم تنبرى له مصلتا عضبا من البيض مقضبا

فلم أر ضرغامين أصدق منكما عراكا إذا الهيابة النكس كذبا

هزبرا مشى يبغى هزبرا وأغلبا من القوم يغشى باسل الوجه أغلبا

أدل بشغب ثم هالته صولة رآك لها أمضى جنانا وأشغبا

فأحجم لما لم يجد فيك مطمعا وأقدم لما لم يجد عنك مهربا

فلم يغنه أن كر نحوك مقبلا ولم ينجه أن حاد عنك منكبا

حملت عليه السيف لا عزمك انثنى ولا يدك ارتدت ولا حده نبا

ومما جاء لأبى الطيب فى قصيدته .

أمعفر الليث الهزبر بسوطه ... لمن ادخرت الصارم المصقولا
ورد إذا ورد البحيرة شاربا ... ورد الفرات زئيره والنيلا
متخضب بدم الفوارس لابس ... فى غيله من لبدتيه غيلا
ما قوبلت عيناه الا ظنتا ... تحت الدجى نار الفريق حلولا
فى وحدة الرهبان إلا أنه ... لا يعرف التحريم والتحليلا
يطأ الثرى مترفقا من تيهه ... فكأنه آس يجس عليلا
ويرد عفرته الى يافوخه ... حتى تصير لرأسه إكليلا
قصرت مخافته الخطا فكأنما ... ركب الكمى جواده مشكولا
ألقى فريسته وزمجر دونها ... وقربت قربا خاله تطفيلا
فتشابه القربان فى إقدامه ... وتخالفا فى بذله المأكولا
أسد يرى عضويه فيك كليهما ... متنا أزل وساعدا مفتولا
ما زال يجمع نفسه فى زوره ... حتى حسبت العرض منه الطولا
وكأنما غرته عين فادنى ... لا يبصر الخطب الجليل جليلا
أنف الكريم من الدنية تارك ... فى عينه العدد الكثير قليلا
والعار مضاض وليس بخائف ... من حتفه من خاف مما قيلا
خذلته قوته وقد كافحته ... فاستنصر التسليم والتجديلا
سمع ابن عمته به وبحاله ... فمضى يهرول أمس منك مهولا
وأمر مما فر منه فراره ... وكقتله ألا يموت قتيلا
تلف الذى اتخذ الجراءة خلة ... وعظ الذى اتخذ الفرار خليلا

وسأحكم بين هاتين القصيدتين . والذى يشهد به الحق وتتقيه العصبية أذكره ، وهو أن معانى أبى الطيب أكثر عددا ، وأسد مقصدا ، ألا ترى أن البحترى قد قصر بمجموع قصيدته على وصف شجاعة الممدوح فى تشبيهه بالأسد مرة وتفضيله عليه أخرى ولم يأت بشىء سوى ذلك ، وأما أبو الطيب فانه أتى بذلك فى بيت واحد هو قوله .

أمعفر الليث الهزبر بسوطه ... لمن ادخرت الصارم المصقولا

ثم انه تفنن فى ذكر الأسد فوصف صورته وهيئته ، ووصف أحواله فى انفرده فى جنسه وفى هيئة مشيه واختياله ، ووصف خلق بخله مع شجاعته وشبه الممدوح به فى الشجاعة وفضله عليه بالسخاء ، ثم إنه عطف بعد ذلك على ذكر الأنفة والحمية التى بعثت الأسد على قتل نفسه بلقاء الممدوح وأخرج ذلك فى أحسن مخرج وأبرزه فى أشرف معنى ، وإذا تأمل العارف بهذه الصناعة أبيات الرجلين عرف ببديهة النظر ما أشرت اليه ، والبحترى وإن كان أفضل من المتنبى فى صوغ الألفاظ وطلاوة السبك ، فالمتنبى أفضل منه فى الغوص على المعانى ، ومما يدلك على ذلك أنه لم يعرض لما ذكره بشر فى أبياته الرائية ، لعلمه أن بشراً قد ملك رقاب تلك المعانى واستحوذ عليها ولم يترك لغيره شيئا يقوله فيها ، ولفطانة أبى الطيب لم يقع فيما وقع فيه البحترى من الانسحاب على ذيل بشر ، لأنه قصر عنه تقصيرا كبيرا ، ولما كان الأمر كذلك عدل أبو الطيب عن سلوك هذه الطريق وسلك غيرها فجاء فيما أدرك مبرزا .

ومما تقع فيه المفاضلة أن يسلك الشاعران طريقا واحدة فتخرج بهما إلى موردين أو روضتين ، وهناك يتبين فضل أحدهما على الآخر . فمما جاء من ذلك قول أبى تمام فى مرثيته بولدين صغيرين ، « لعبد الله بن طاهر ماتا فى نهار واحد » :

مجد تأوب طارقا حتى إذا ... قلنا أقام الدهر أصبح راحلا
نجمان شاء الله ألا يطلعـا ... إلا ارتداد الطرف حتى يأفلا
إن الفجيعة بالرياض نواضرا ... لأجل منها بالرياض ذوابلا
لهفى على تلك الشواهد فيهما ... لو أخرت حتى تكون شمائلا
إن الهلال إذا رأيت نموه ... أيقنت أن سيكون بدرا كاملا
قل للأمير وإن لقيت موقرا ... منه بريب الحادثات حلاحلا
إن ترز فى طرفى نهار واحد ... رزأين هاجا لوعة وبلابلا
فالثقل ليس مضاعفا لمطية ... إلا إذا ما كان وهما بازلا
لا غرو إن فننان من عيدانه ... لقيا حماما للبرية آكلا

إن الأشاء إذا أصاب مشذب منه اتمهل ذرا وأث أسافلا
شمخت خلالك أن يواسيك امرؤ أو أن تذكر ناسيا أو غافلا
إلا مواعظ قادها لك سمحة إسجاح لبك سامعا أو قائلا
هل تكلف الأيدى بهز مهند إلا إذا كان الحسام الصاقلا

وقال أبو الطيب فى مرثيته بطفل صغير « لسيف الدولة »

فان تك فى قبر فانك فى الحشا وإن تك طفلا فالأسى ليس بالطفل
ومثلك لا يبكى على قدر سنه ولكن على قدر الفراسة والأصل
ألست من القوم الذى من رماحهم نداهم ومن قتلاهم مهجة البخل
بمولودهم صمت اللسان كغيره ولكن فى أعطافه منطق الفصل
تسليهم علياؤهم عن مصابهم ويشغلهم كسب الثناء عن الشغل
عزاؤك سيف الدولة المقتدى به فانك نصل والشدائد للنصل
تخون المنايا عهده فى سليله وتنصره بين الفوارس والرجل
بنفسى وليد عاد من بعد حمله الى بطن أم لا تطرق بالحمل
بدا وله وعد السحابة بالروى وصدوفينا غلة البلد المحل
وقد مدت الخيل العتاق عيونها الى وقت تبديل الركاب من النعل
وريع له جيش العدو وما مشى وجاشت له الحروب الضروس وما تغلى

فتأمل أيها الناظر الى ما صنع هذان الشاعران فى هذا المقصد الواحد ، وكيف هام كل واحد منها فى واديه مع اتفاقهما فى بعض معانيه ، وسأبين لك ما اتفقا فيه وما اختلفا وأذكر الفاضل من المفضول فأقول ،

أما الذى اتفقا فيه فان أبا تمام قال .

لهفى على تلك الشواهد فيهما لو أخرت حتى تكون شمائلا

وقال أبو الطيب .

بمولودهم صمت اللسان كغيره ولكن فى أعطافه منطق الفصل

فأتى بالمعنى الذى أتى به أبو تمام وزاد عليه بالصناعة اللفظية ، وهى المطابقة فى قوله صمت اللسان ومنطق الفصل ، وقال أبو تمام .

نجمان شاء الله ألا يطلعا   الا ارتداد الطرف حتى يأفلا

وقال أبو الطيب .

بدا وله وعد السحابة بالروى   وصد وفينا غلة البلد المحل

فوافقه فى المعنى وزاد عليه بقوله وصدوفينا غلة البلد المحل لأنه بين قدر حاجتهم الى وجوده وانتفاعهم بحياته ، وأما مااختلفا فيه فان أبا الطيب أشعر فيه من أبى تمام أيضا ، وذاك أن معناه أمتن من معناه ، ومبناه أحكم من مبناه ، وربما أكبر هذا القول جماعة من المقلدين الذين يقفون مع شبهة الزمان وقدمه ، لا مع فضيلة القول وتقدمه ، وأبو تمام وان كان أشعر عندى من أبى الطيب فان أبا الطيب أشعر منه فى هذا الموضع ، وبيان ذلك أنه قد تقدم القول على ما اتفقا فيه من المعنى ، وأما الذى اختلفا فيه فان أبا الطيب قال .

عزاؤك سيف الدولة المقتدى به   فانك نصل والشدائد للنصل

وهذا البيت بمفرده خير من بيتى أبى تمام اللذين هما .

إن ترز فى طرفى نهار واحد   رزأين هاجا لوعة وبلابلا

فالثقل ليس مضاعفا لمطية   إلا إذا ما كان وهما بازلا

فان قول أبى الطيب والشدائد للنصل أكرم لفظا ومعنى من قول أبى تمام إن الثقل انما يضاعف للبازل من المطايا ، وقول المتنبى أيضا .

تخون المنايا عهده فى سليله   وتنصره بين الفوارس والرجل

أشرف من بيتى أبى تمام اللذين هما .

لا غرو إن فننان من عيدانه   لقيا حماما للبرية آكلا

إن الأشاء اذا أصاب مشذب   منه اتمهل ذرا وأث أسافلا

وكذلك قول أبى الطيب .

ألست من القوم الذى من رماحهم   نداهم ومن قتلاهم مهجة البخل

تسليهم علياؤهم عن مصابهم   ويشغلهم كسب الثناء عن الشغل

خير من بيتى أبى تمام اللذين هما :

شمخت خلالك أن يواسيك امرؤ   أو أن تذكر ناسيا أو غافلا

إلا مواعظ قادها لك سمحة إسماح لبك سامعا أو قائلا

وبعد هاتين أشار ابن الأثير الى موازنة بين المتنبى والبحترى فى رثاء الأول أخت سيف الدولة بقصيدته التى أولها .

يا أخت خير أخ يا بنت خير أب كناية بهما عن أشرف النسب

ورثاء الثانى لامرأة أيضا بقصيدته التى أولها .

غروب دمع من الأجفان تنهمل وحرقة بغليل الحزن تشتعل

مفضلا المتنبى أيضا بأنه انفرد بابتداع ما أتى به فى قصيدته ، فى حين أتى البحترى بما أكثره غث بارد ، والمتوسط منه لا فرق فيه بين رثاء امرأة أو رجل ، ومن الواجب أنه إذا سلك النـــاظم أو الناثر مسلكا فى غرض من الأغراض ألا يخرج عنه ، كالذى سلكه هذان الرجلان فى الرثاء بامرأة فان من حذاقة الصنعة أن يذكر ما يليق بالمرأة دون الرجل ، وهذا الموقع لم يأت فيه أحد بما يثبت على المحك إلا أبو الطيب وحده . وأما غيره من مفلق الشعراء قديما وحديثا فانهم قصروا فيه عنه ؛ وله فى هذا المعنى قصيدة أخرى فى رثاء والدة سيف الدولة مفتتحها :

نعد المشرفية والعوالى وتقتلنا المنون بلا قتال

وكفى بهما شاهدا على ما ذكرته من انفراده بالابداع فيما أتى به . والفتيا عندى بينه وبين البحترى ، أن أبا الطيب أنفذ فى المضيق ، وأعرف باستخراج المعنى الدقيق ، وأما البحترى فانه أعرف بصوغ الألفاظ وحوك ديباجتها ، وقد قدمت أن الحكم بين الشاعرين فى اتفاقهما فى المعنى أبين من الحكم بينهما فيما اختلفا فيه ، لأنهما مع الاتفاق فى المعنى يتبين قولاهما ويظهران ظهورا يعلم ببديهة النظر ، ويتسارع اليه فهم من ليس بثاقب الفهم ، وأما اختلافهما فى المعنى فانه يحتاج فى الحكم بينهما فيه ، إلى كلام طويل يعز فهمه ولا يتفطن له إلا بعض الناس دون بعض ، بل لا يتفطن له إلا الفذ الواحد من الناس . وكذلك أشار ابن الأثير الى موازنة أخرى بين البحترى والشريف الرضى على ذكر الذئب فى قصيدة الأول التى أولها .

سلام عليكم لا وفاء ولا عهد أما لكم من هجر أحبابكم بد

ومقطوعة الثانى التى أولها :

وعارى الشوى والمنكبين من الطوى أتيح له بالليل عارى الأشاجع

وكان حكمه أن البحترى أجاد فى وصف حاله مع الذئب ، وأن الشريف أجاد فى وصف الذئب نفسه . وينبغى أن نشير هنا إلى أن ابن الأثير أغفل فى هاتين الموازنتين المشار إليهما ذكر القصائد الأربع ، كما لم يذكر قصيدة بشر بن عوانة فى وصف الأسد ، وقد ذكرتها كلها فى كتاب المطالعة التوجيهية ، إذ كان القسم المختار من المثل السائر من نصيبى فى العمل به ، فليرجع إليها هناك ، اللهم إلا لامية البحترى فى رثاء امرأة لأنى لم أجدها فى ديوانه ولم أهتد إليها فى مرجع غيره ، ولذلك استعضت بمرثيته لبنت أبى نهشل الطوسى التى أخفق فيها كل الاخفاق ومطلعها :

أتبكى من لا ينازل بالسيـــف مشيحا ولا يهز اللواء

وانما ذكرتها هناك دلالة على أن البحترى وهذه نظرته إلى النساء لم يك من شأنه أن يحسن لهن الرثاء .

وبعـــد

فهذا ما عن لى ذكره عن تاريخ النقد الأدبى فى العصر العباسى على عهوده الأربعة ، أما بعد ذهاب تلك الدولة من المشرق ، فلم يك له مجال فى التاريخ ، لأن الأحداث توالت على الأدب فى شرق الدولة وغربها ، فجفت عيونه وصوحت رياضه ، ومن ثم عصفت بالنقد الزعازع وطوحت به الأعاصير ، ولله فيما أراد الحكمة ، ولنا منه العظة والاعتبار .

السباعى بيومى

تضافر المستشرقين والمصريين

لنشر المؤلفات المخطوطة

مما سبقنا إليه الغربيون عناية المستشرقين منهم ببعث الكنوز الشرقية فى فى عالم المؤلفات المخطوطة وكلها نفيس ونادر ، وساعد على هذا أنهم تخصصوا فى كل فرع من فروع الثقافة ، وأن مراجع كل فرد تحت أيديهم بالمئات وأن لكل مرجع منها فهارس منظمة لكل ما اشتمل عليه : ففهرس للشعراء ، وآخر لرجال السند ، وثالث للأعلام ، ورابع للأمم والقبائل والارهاط والعشائر ، وخامس للأماكن ، وسادس لأسماء الكتب التى ورد ذكرها فى هذا المرجع وهكذا ، فكل ما يحتاج اليه الباحث من هذه ومن غيرها يستطيع العثور عليه بنظرة خاطفة بفضل هذا التنظيم المثمر الذى قامت دعائمه على تضافر علمائهم وجمعياتهم الثقافية ، وسخاء أغنيائهم ، وتقديرهم العميق لكل ما يوضح جانبا من جوانب الثقافة الشرقية التى هى جزء لا يتجزأ من الثقافة الانسانية .

وقد كان همنا فيما مضى أن نستفيد من آثار المستشرقين هؤلاء بشراء ما طبعوه من مباحث أو نشروه من دفائن فى مدائنهم الكبرى ومكتباتهم العامرة ، أو فى بعض حواضرنا الشرقية إذا ضمنوا أن يشرف على طبعه جمهرة منهم أو من إحدى جمعياتهم العلمية .

أما الآن فقد رأينا فتحاً جديداً فى مصر فى هذا الميدان ، وتضافر المستشرق « ا. ليفى بروفنسال» أستاذ اللغة والحضارة العربية بالسربون ومدير معهد الدراسات الاسلامية بجامعة باريس مع دار المعارف بمصر . وكان من نتائج هذا التضافر نشر كتاب مخطوط ثمين من أمهات كتب الأنساب

وهو « جمهرة أنساب العرب » لابن حزم الاندلسى المتوفى فى منتصف القرن الخامس الهجرى ، فكفى الباحثين مئونة البحث المرهق المضنى فى صحارى المخطوطات القديمة التى هى أشبه بألغاز الخطوط الهيروغليفية ، أو المسمارية أو الحميرية ومهدوا بفهارسه كثيرا مما نريد .

فهل إذا عثر المتصفح لهذا الكتاب على بعض هنات يعود بعضها إلى المطبعة يرفع عقيدته بالويل والثبور والنقد والتجريح وينسى الجوانب المشرفة لهذا المجهود الجبار .

إن الانصاف يقتضى أن نشكر المستشرق البحاثة ، ونثنى على دار المعارف ، لأنهم إختاروا فأحسنوا الاختيار ، واجتهدوا وللمجتهد حظه من التقدير .

فاذا مازل القلم ، فلا تثريب عليهم مادامت الحسنات أكثر ، وما داموا لم يألو جهدا ببحث هذا الكتاب الذى بلغت صفحاته أكثر من خمسمائة صفحة وبلغت أعلامه وقبائله عشرات الألوف ، فوق خطه المغربى الذى لا يكاد يقرأ ، وما تكلفه من صبر وجلد ومال وبحث ووقت ، وما يحوطه بعد كل أولئك من مستقبل مجهول .

هذا جوابى لمن طلبوا إلى إبداء رأيى فى هذا الكتاب ، أما إرشادهم إلى بعض ما ند فى أثناء التصحيح ، أو ما سها عنه حضرة الأستاذ المستشرق فسأنشر منه فى كل فترة عشرين منها ، وإلى حضراتهم ما وعدت به :

(١) أول ما عثرت عليه منها كان فى صفحة ٣٦٦ وقد جاء فى السطر الثالث : « ومن بنى عرينه بن نذير قسر بن عبقر : حية بن جوين بن (نِهم) هكذا بكسر نون نهم وضم نون نذير .

وصوابه (نُهم) بضمها يؤيد ذلك ما جاء فى أحدث مؤلفاتى (قاموس الأعلام والقبائل) وقد اعتمدت فيه على أمهات المعاجم اللغوية وكتب الانساب المضبوطة بالحروف لا بالحركات ، وما جاء فى مؤتلف القبائل

هذه المادة وكتب اللغة الأخرى ويميل إلى أنه تابع فى هذا الضبط بعض المستشرقين الآخرين ، أو التبس عليهم الأمر ، بينهم همدان بن ربيعة بن مالك لأنه بالكسر .

(٣) وفى ص ٢٢٠ فى الكلام على بنى عبد الله بن دارم ذكر خمسة منهم ثم قال أمهم من بنى « أسيد » بسكون الياء وصواب تشديدها كما فى ص ٤٥ من المؤتلف ، وضبط المستشرقين لاشتقاق ابن دريد ، بل بدليل ضبط الناشر نفسه قبل ذلك فى ص ١٩٩ فى الجمهرة .

(٣) وفى صفحة ١٩٠ أمران شرحهما أن المؤلف قال فى نسب بلال بن الحارث أنه من بنى مازن بن حلاوة بن ثعلبة ، فشاء الأستاذ الناشر أن يضبط الباقى هكذا « بن هدمة » ، « ابن الأصم » والصواب فى الأول « هذمة » بالذال المنقوطة وفى الثانى « لاطم » لا الأصم .

وقد أشار إلى الصواب فيهما معا الفيروزأبادى فى قاموسه فى مادة « هـ د م » مختلف القبائل صفحة ٣ بل ان الجمهرة نفسها ص ١٩٢ اعترفت بلاطم بن عثمان فوق أن أسد الغابة جـ ٢ ص ٢٩٥ أثبت هذا الاسم فى ترجمة « شريح بن ضمرة المزنى » وهو أول من قدم بصدقة مزينة على النبى « ص » وترجمة « عبد الله ابن درة المزنى » جـ ١ ص ١٥٢ وقبل هذا أثبت القاموس المحيط فى مادة « جرس) حقيقة الاسم الثانى وهو لاطم فقال : « جرس بن لاطم بن عثمان بن مزينة » لا الاصم .

(٤) وفى ص ١٩٢ : ولد ضبة بن أد : سعد بن ضبة وسعيد قتله الحارث ابن سعد ، ثم قتل ضبة الحارث بن كعب وفى ذلك سارت الامثال : « أسعد أم سعيد » ، والصواب سعيد بضم السين وفتح العين ، كما فى المعاجم اللغوية ، وكما فى « قاموس الاعلام والقبائل » .

(٥) وفى الصفحة التالية (١٩٣) قال المؤلف منهم — من بنى ضبة — ضرار بن عمرو بن مالك بن زيد بن كعب ثم جعل المصحح أبا كعب (بجاد)

ابن ذهل بن مالك والصواب (بجالة) بن ذهل بن مالك بلام وتاء مربوطة بعد الألف بدل الدال بدليل الاشتقاق لابن دريد فى كلامه عن قبائل بنى ضبة ورجالهم ص ١١٩ وقد تكون هذه غلطة مطبعية عند إحساننا الظن .

(٦) وفى صفحة ٢١٠ قال فى ترجمة زهرة التميمى قاتل جالينوس الفارسى (زهرة) بضم الزاى بن (جويرية) والصواب (زهرة) بفتح الزاى، جويرية صوابها (حوية) و (جوية) فالأولى بالحاء المفتوحة والواو المكسورة ، والثانية بالجيم المضمومة والواو المفتوحة ، ويراجع فى هذا أسد الغابة فقد ضبطها بالحروف لا بالحركات .

(٧) وفى ص ٢١٣ تحدث المؤلف فى نسب بنى يربوع بن حنظلة بن مالك التميمى فقال : منهم واقد بن عبد مناف بن (عزين) بن ثعلبة وكررها بهذا الضبط وبهذه الحروف والحق أن عبد مناف هو ابن (عرين) بالعين المفتوحة لا المضمومة والراء المهملة المكسورة لا الزاى المفتوحة ، ولم تختلف كتب الانساب فى هذا الضبط ولا الكتب التى تصدت لضبط الاعلام والقبائل كمختلف القبائل ص ٤٦ وكذلك القاموس المحيط فى مادة (عرن) والاشتقاق ص ١٣٥ .

وقد أجمعوا على أن عرين من بنى تميم المضريين ، وأن عربته بضم العين وفتح الراء المهملة والتاء المربوطة من بجيلة إحدى القبائل اليمنية الكبرى .

(٨) وفى نفس الصفحة تكلم المؤلف عن مالك ومتمم ابن نويره فجاء المصحح الناشر وجعل أبا نويرة (نمرة) بن شداد بن عبيد بن ثعلبة والصواب (جمرة) كما فى صفحة ٣٥ من المؤتلف فقد قال : (جمرة) بالجيم بن شداد بن عبيد بن ثعلبة .

(٩) وفى ص ٢ عند الكلام على ذكر الهمهام التميمى جعل من أجداده (كافية) بن حرقوص وفعل مثل هذا فى نسب خفاف بن هير ، وأعاد الاسم بهذا الضبط ٤ مرات سهوا فى أنساب هلال بن أجوز وقطرى بن

الفجاءة والصواب (كابيـه) بن حرقوص بالباء التحتيـة بدل الباء الفوقيـة يراجع هذا فى الاشتقاق لابن دريد ص ١٢٦ وخزانة الادب للبغدادى ، ومختلف القبائل ص ٣٦ .

(١٠) وفى ص ٢٠١ جعل الجد الثالث لمالك بن الريب التميمى صاحب القصيدة التى رثى بها نفسه عند موته (حبيل) بن ربيعة بباء وياء مثناه على هيئة المصغر والصواب (حسل) بالحاء والسين واللام كما فى المراجع السابقة.

وحسبى هذا الآن ، وفى العدد التالى سأذكر عشرين هنـــة بعد هذه العشر .

عبد العزيز مزروع الأزهرى
المدرس بالقبة الثانوية

كيف نشأ الوزن والقافية

فى الشعر العربى

للأستاذ أحمد محمد الحوفى

المدرس بكلية دار العلوم بجامعة فؤاد الأول

نشأة عربية خالصة . رأى ابن رشيق فى نشأة الوزن والرد عليه .
رأيى فى نشأته ، مراحل هذه النشأة : السجع ، التغنى بالسجع ، علاقة الشعر بالغناء ، مظاهر هذه العلاقة فى نشأة الوزن والقافية

---

(١)

نشأت الموسيقى الشعرية — الوزن والقافية — نشأة عربية خالصة خالية من تأثير أمة أخرى ، لأن الأوزان العربية ليست لأمة من الأمم القديمة ، ولأن السريان القدماء « كانوا ينظمون بغير أن يلتزموا قافية واحدة ، والعبرانيين لم يلتزموا الوزن ولا القافية ، وقد يشترطون القافية دون الوزن »(١) فيعبر شعر العبرانيين فى هذه الصورة الأخيرة شبيها بالسجع العربى ، ولهذا لما سمعوا القرآن الكريم — وهو ذو فواصل وتصوير شعرى — زعموا أنه شعر بالقياس إلى تصورهم للشعر .

ولا سبيل إلى احتمال أن الوزن العربى متأثر بالفارسى ، لأن الشعر الفارسى القديم كان مجهولا للفرس أنفسهم حين اختلطوا بالعرب ، بل لا يزال تاريخ الأدب الفارسى اليوم يجهل ما كان عليه الشعر الفهلوى أى

---

(١) تاريخ التمدن الاسلامى ٣ — ٢٣

الشعر الفارسى قبل الإسلام ، ولذا نشأ الشعر الفارسى فى القرن الثالث للهجرة على غرار الشعر العربى فى موضوعاته وأوزانه وقوافيه مع بعض تحوير يسير . حتى إن الفرس نقلوا الأوزان العربية وسموها بأسمائها ، ونقلوا مصطلحات العروض كلها .

وليس بصحيح ما مال إليه جرجى زيدان من أنه نشأ متأثرا بشعر الرومان أو اليونان ، إذ قال :

« امرؤ القيس أول من أطال القصائد وتفنن فى نظمها ، وفتح الشعر ، وبكى ووصف . . . . . .

ولعله تنبه لهذا التفنن فى أثناء أشعاره فى بلاد الروم ، فسمع أشعارهم أو أشعار اليونان ، والنبيه تتفتق قريحته بالاختلاط ، فزاداختباره ، فأدخل فى الشعر ما أدخله ، وكان الشعراء فى الجاهلية قلما يدخلون بلاد الروم ، وإنما كانوا يقفون على الحدود فى البلقاء عند بنى غسان ، أو فى الحيرة عند بنى لخم المناذرة ، إلا قليلا »(١) .

وهذا رأى مردود ، لأن امرأ القيس قد افتن قبل أن يرحل إلى بلاد الروم افتنانه كله ، ولأنه قضى نحبه وهو عائد فضاع معه ما اقتبسه إن صح أنه اقتبس شيئا ، ولأن القصيدة العربية كانت قد نضجت وكمل وزنها واستوت قافيتها قبل أن يرحل امرؤ القيس إلى قيصر بل قبل أن يولد ، فالمهلهل مثلا خال امرىء القيس وأسن منه وله قصائد جياد طوال .

على أن شعر اليونان والرومان خال من القافية ، والأوزان العربية غير أوزان اليونان والرمان ، والموضوعات نفسها متغايرة فليس فى الشعر الجاهلى ملاحم ولا مسرحيات كالتى عند اليونان والرومان .

(٢)

وقد قال ابن رشيق فى نشأة الوزن العربى : إن العرب احتاجوا إلى الغناء بمكارم أخلاقهم ، وطيب أعراقهم ، وذكر أيامهم الصالحة ، وأوطانهم النازحة ،

(١) تاريخ التمدن الاسلامى ٣ — ٢٤

وفرسانهم الأنجاد ، وسمحائهم الأجواد ؛ فتوهموا أعاريض جعلوها موازين الكلام ، فلما تم لهم وزنه سموه شعرا ، لأنهم شعروا به أى فطنوا (١)

ولكن هذا الرأى يفضى إلى أن العرب اهتدوا إلى الأوزان عن تعمد وقصد ومواضعة ، وليس هذا بشىء لأن نتاج الإلهام — والشعر إلهام — لا يخضع إلى المواضعة والموافقة ، ثم من حقنا أن نتساءل لماذا توهموا هذه الأوزان عينها ولم يتوهموا غيرها ؟ ولماذا لم يقتصروا على بعضها دون بعض ؟ وكيف تواضعوا على هذه الأوزان واتفقوا على اختلاف ديارهم وتباعد أوطانهم وتحضر بعضهم وتبدى بعضهم ؟

نحن إذاً لا نقبل هذا الرأى ، فهل نستطيع أن نبدى غيره ؟

سنحاول ذلك راجين أن نهتدى إلى صواب .

(٣)

ا — ما من شك فى أن الناس تكلموا أولا بالنثر وسيلة للتفاهم وتحقيق المنافع ، ثم تأنق بعضهم فى تعبيره تساميا بالقول أو تصويرا لعاطفة جياشة فاتزن كلامه اتزانا نشأ منه السجع ، فأعجبه وقعه فأكثر هو وأمثاله من هذا الطراز ، وحببه إليهم ماله من تأثير فى النفوس ورنين فى الآذان ، ولهذا كان من خصائص الممتازين بالكلام الرائع والمعبرين عن العاطفة ، والراغبين فى التأثير والاستمالة ، كالرؤساء والكهان والسحرة ، ليجتذبوا بموسيقاه قلوب الناس ويموهو عليهم ويمتلكوا عواطفهم ، ويخدروا وعيهم ، ويحدثوهم بما يزعمون أنهم العليمون به ، فيسمع الناس عنهم مصدقين لما يقولون ، غير متبصرين فى نقد ما يسمعون وتقصى معانيه ، ولذلك قد يلجأ السجاعون إلى نوع من الغموض فيحملون الكلمة أو الجملة عدة معان ليذهب السامعون فى فهمها كل مذهب ، وقد يقحمون كلمات لا معنى لها وإنما جاءوا بها لوزن الكلام وترنيم الوقفة .

وقد اتهم العرب النبى عليه الصلاة والسلام بأنه ساحر « قال الكافرون

---

(١) العمدة ١ — ٥

إن هذا لساحر مبين » (١) وبأنه كاهن وشاعر « وما هو بقول شاعر. قليلا ما تؤمنون، ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون » (٢)، لأنه يحدثهم بالقرآن الكريم فيسحرهم ببلاغته، ويبهرهم بموسيقاه وفواصله، فهو فى نظرهم صادر عن قدرة فى النبي فوق قدرهم.

وقد تغنى الناس بهذا الكلام المسجوع لأنه أكثر ملاءمة للغناء والتلحين من غير المسجوع، فنشأت الأوزان والقافية، وقبل أن نكشف عن طريقة هذه النشأة نمهد لها بكلمة فى علاقة الشعر بالغناء عند العرب وغير العرب.

ب ــ ارتبط الشعر والغناء فى النشأة الأولى ارتباطا وثيقا، ولا غرابة فى ذلك، لأنهما معا يصدران من العاطفة ويعبران عنها، فبواعث الغناء هى بواعث الشعر، ثم إن الموسيقى خصيصة فيهما معا، ففى الغناء موسيقى النغمات والألحان، وفى الشعر موسيقى الألفاظ والأوزان، ولذلك لا نعرف شعبا قديما تغنى بالنثر، لأن الناس إن تغنوا به أول الأمر لا يلبثون أن يحسوا أن الغناء بالكلام الموزون أولى، وأكثر طواعية للتنغيم والترنيم

وظواهر هذا الارتباط كثيرة فى الأدب العربى القديم وفى غيره من الآداب، فقد كان شعراء العصر الجاهلى يغنون شعرهم وينشدونه وهم يلقونه، كما روى أن المهلهل شرب خمراً وتغنى بقصيدته التى مطلعها.

طفلة ما ابنة المحلل بيضا .·. ء لعوب لذيذة فى العناق(٣)

والسليك بن السلكة غنى بقوله:

يا صاحبى ألا لاحى بالوادى .·. سوى عبيد وآم بين أذواد

أتنظران قريبا ريث غفلتهم .·. أم تغدوان فان الربح للغادى(٤)

والأعشى « كان يغنى فى شعره فكانت العرب تسميه صناجة العرب » (٥) وكان يتردد على اليمن ويسمع الغناء ويشرب الخمر، ويسمع البربط، ويقول:

وكعبة نجران حتم عليــك حتى تناخى بأبوابها

(١) سورة يونس (٢) سورة الحاقة

(٣) الاغانى ٥ ــ ٥١ الدار (٤) الاغانى ١٨ ــ ١٣٤ ساسى

(٥) الاغانى ٩ ــ ١٠٩ الدار

يزور يزيد وعبد المسيح .·. وقيسا وهم خير أربابها
وشاهدنا الجل والياسمين والمسمعات بقصابها
وبربطنا دائم معمل .·. فأى الثلاثة أزرى بها

وهؤلاء الذين ذكرهم أساقفة نجران، وكان يزورهم ويمدحهم ويمدح العاقب والسيد وهما ملكا نجران، ويقيم عندهما ما شاء يسقونه الخمر ويسمعونه الغناء الرومى. فاذا انصرف أجزلوا صلته. (١)

ومُزَرِّد بن ضرار الذبيانى أو أخوه جَزْء يقول فى تهديده أعداءه بالهجاء الممض: إنه يقتحم الخصومة لا يبالى، لأنه يتعرض فى كل شىء أو لأنه ذو فنون وذو حذق، وهو كفيل بأن يرميهم بأهاج مرة يتغنى بها السارى ويحدو بها الآبل:

فقد علموا فى سالف الدهر أننى .·. مِعَنٌّ إذا جدا الجراء ونَابِلُ
زعيم لمن قاذفته بأوابد .·. يُغنى بها السارى وتُحْدَى الرواحل (٢)

وأبو النجم فى العصر الاسلامى يطلب من قينة أن تغنيه ببعض ما كان يغنى به امرؤ القيس وعمرو:

تغنى فإن اليوم يوم من الصبا .·. ببعض الذى غنى امرؤ القيس أو عمرو (٣)

وظلت اللغة العربية محتفظة بلفظ الانشاد للدلالة على إلقاء الشعر وإن لم يصاحبه غناء، مما يدل على صلة عريقة بين هذين الفنين، قال حسان بن ثابت إن قلت شعرا فتغن به:

تغن بالشعر إما كنت قائله إن الغناء لهذا الشعر مضمار (٤)

وقال ذو الرمة إنه يتغنى باسم حبيبته، أى ينشد الشعر فيها:

---

(١) الاغانى ٦ — ٦٩ — ٧٠ ساس

(٢) المفضليات ١ — ٩٨ شاكر وهارون معن: متعرض فى كل شىء أو ذو فنون «القاموس والاساس» الجراء: الجرى. النابل: الحاذق أو الرامي بالنبال. أوابد. غرائب القول يريد بها الاهاجى المرة.

(٣) الشعر والشعراء — ٤٢

(٤) العمدة ٢ — ٢٤١

أحب المكان القفر من أجل أنني ... به أتغنى باسمها غير معجم (١)

وقال المتنبي في مدح سيف الدولة إنه طائر غرد، وإن الدهر يتغنى بشعره وإن شعره يغني به من ليس من شأنه الغناء :

أجزني . إذا أنشدت شعراً فانما ... أتاك بشعري المادحون مرددا

ودع كل صوت غير صوتي فانني ... أنا الصائح المحكي والآخر الصدى

وما الدهر إلا من رواة قصائدي ... إذا قلت شعرا أصبح الدهر منشدا

فسار به من لا يسير مشمرا ... وغنى به من لا يغني مغردا (٢)

ومازال الناس يطلقون على الرجل الذي ينشدهم في المحافل قصصا شعرية كعنترة وأبي زيد اسم الشاعر . وهو لا يلقي شعرا فحسب بل يتغنى به على الربابة .

* * *

على أن شعراء العصر الجاهلي أكثروا من التحدث بالمغنيات ، ولاسيما بعد ماقوى اتصال العرب بالفرس والروم والحبش ، وكثرت القيان في بلاد العرب . قال طرفة في معلقته إنه شرب الخمر هو وندماؤه ، وأطربتهم قينة رخيمة الصوت :

نداماي بيض كالنجوم وقينة ... تروح إلينا بين برد ومجسد

رحيب قطاب الجيب منها رفيقة ... بجس الندامى ، بضة المتجرد

إذا نحن قلنا أسمعينا انبرت لنا ... على رسلها مطروفة لم تشدد

إذا رجعت في صوتها خلت صوتها ... تجاوب أظآر على ربع ردي (٣)

وقال امرؤ القيس إنه إن صار مكروبا فقد طالما فرج همه بسماع مغنية تعزف على عود :

وإن أمس مكروبا فيارب قينة ... منعمة أعملتها بكران

لها مزهر يعلو الخميس بصوته ... أجش إذا ماحركته يدان (٤)

---

(١) العمدة ٢ — ٢٤١ (٢) الديوان ١ — ١٩٣ شرح البرقوقي طبعة الرحمانية سنة ١٩٣٠ (٣) ديوان طرفة ٢٨ — ٢٩ (٤) ديوان امرىء القيس — ١٨٧ السندوبي

وامرؤ القيس صاحب أخبار فى اللهو والخمر والغناء ، فقد رووا أنه لما طرده أبوه «كان يسير مع جماعة من شذاذ العرب ، فإذا صادف غديرا أو روضة أو موضع صيد أقام فذبح لمن معه فى كل يوم ، وخرج إلى الصيد فتصيد ، ثم عاد فأكل وأكلوا معه ، وشرب الخمر وسقاهم ، وغنته قيانه»(١) وقد افتخر سلامة بن جندل بمغنيتهم البيضاء الحسناء الفلجاء العفيفة :

وعندنا قنية بيضاء ناعمة مثل المهاة ، من الحور الخراعيب
تجرى السواك على غر مفلجة لم يغرها دنس تحت الجلابيب (٢)

ويظهر أن الخمر كانت تصحب بالغناء فى الأعم الأكثر ، فهذا عمر بن الإطنابة يفخر باحتساء الخر المصفاة ، وبسماع القيان العازفات على الدفوف لفتيان القبيلة ، حدث أبو الفرج أنه دعا بشرا به وقيانه فغنين له بقوله فى رثاء خالد بن جعفر لما قتله الحارث بن ظالم :

عللانى وعللا صاحبيا واسقيانى من المروق ريا
إن فينا القيان يعزفن بالدف لفتياننا وعيشا رخيا (٣)

وهذا علقمة يفخر بأنه يتادم على الخمر أو يستمع إلى المزهر.

قد أشهد الشرب فيهم مزهر رنم والقوم تصرعهم صهباء خرطوم (٤)

وعدد عبد يغوث من مفاخر ماضيه الذى يتحسر عليه وهو فى الأسر أنه كان يشق رداءه بين القينتين وينحر للندامى مطيته :

وأنحر للشرب الكرام مطيتى وأصدع بين القينتين ردائيا (٥)

وكان مجلس الشراب والغناء يمتد إلى الهزيع الأخير من الليل ، قال كعب بن الأشرف فى فخره :

ولنا بئر رواء جمة من يردها بإناء يغترف

---

(١) الاغانى ٩ ـ ٨٧ الدار (٢) المفضيات ١ـ١١٨ شاكر وهارون الخراعيب: جمع خرعوبة الهينة البيضاء الجميلة ، لم يغرها : لم يلصق بها (٣) الاغانى ٩ ـ ١٦٤ الدار و ١٠ ـ ٢٨ ساسى (٤) المفضليات ٢ ـ ٢٠٢ شاكر وهارون . الخرطوم أول ما ينزل منها وهى صافية (٥) المفضليات ١ ـ ١٥٦

ونخيل فى قلاع جمة تخرج التمر كأمثال الأكف
وصرير فى مجالى خلة آخر الليل أهازيج بدف (١)

وارتبطت نشوة الخمر ولذة الغناء بالمتعة بالنساء، فهذا برج بن مسهر الطائى يفتخر بالخمر وسماع القيان ، فتتداعى فى ذهنه خواطر اللذات فيفتخر أيضا بالاستمتاع بالنساء الحسان المنعمات اللاتى يغتسلن بالماء الحار :

وفينا مسمعات عند شرب وغزلان يعد لها الحميم (٢)

وقد فصل عبدة بن الطبيب ما أجمله غيره ، فقال إن القينة كانت تطربهم بغناء الشعر الرائع الذائع ، فهم فى نشوة من تطريبها ، وفى طرب من الشعر، وهم لذلك يمنحونها ويخلعون عليها :

ثم اصطبحت كميتا قرقفا أنفا من طيب الراح ، واللذات تعليل
صرفا ، مزاجا ، وأحيانا يعللنا شعر كمذهبة السمان محمول
تذرى حواشيه جيداء آنسة فى صوتها لسماع الشراب ترتيل
تغدو علينا فتلهينا ونصفدها تلقى البرود عليها والسرابيل (٣)

وكان بمكة قينتان فارسيتان لعبدالله بن جدعان تغنيان الناس (٤) . وكان بالمدينة قينة أوحى إليها أهل المدينة أن تغنى النابغة بقصيدة من شعره فيها إقواء فتيقظ له وأصلحه (٥) وكانت هريرة - معشوقة الأعشى - وأختها خليدة قينتين لبشر بن عمرو بن مرثد. وكانتا تغنيانه النصب وقدم بهما اليمامة لما هرب من النعمان (٦)

وقد تحدث حسان عن بعض لياليه عند جبلة بن الأيهم فى الجاهلية ، فقال إنه سمع عشر قيان ، خمس روميات يغنين بالرومية بالبرابط وخمس

---

(١) طبقات الشعراء لابن سلام ١١١ . الخلة : الخمر بئر جمة : كثير الماء
(٢) الحماسة ٢ - ٨٣
(٣) المفضليات ١ - ١٤٣ قرقف : ترعد شاربها . أنف : لم يشربها أحد قبله . السمان : وشى مقارب محكم محمول ، مروى . تذرى - ترفع أو تسقط حواشى أغانيها تطريبا وترجيعا نصفدها . نعطيها . (٤) الاغانى ٨ - ٣٢٧ الدار (٥) الاغانى ٩ - ١٥٧ ساسى
(٦) الاغانى ٨ - ٧٧ ساسى

يغنين غناء أهل الحيرة ، وكان يفد إليه من يغنيه من العرب من مكة وغيرها (١) .

وكانت الأمهات يغنين بالشعر وهن يرقصن أطفالهن ، من ذلك قول منفوسة بنت زيد الخيل وهى ترقص ولدها :

أشبه أخى أو أشبهن أباكا أما أبى فلن تنال ذاكا
تقصر عن مناله يداكا (٢)

وهن يبكين على موتاهن بغناء حزين هو النواح كما ناحت الخنساء على أخويها وكما ناحت هند بنت عتبة على أبيها وعمها وأخيها (٣) .

وكن يغنين فى المعارك ليشجعن الرجال على الاستبسال، كما غنت إحداهن فى يوم ذى قار :

إن تهزموا نعانق . ونفرش النمارق
أو تهربوا نفارق فراق غير وامق (٤)

وطالما غنى الرجال بشعر حماسى وهم يحار ون ، كما فعل عمير بن الحمام إذ سمع النبى ﷺ يحرض المسلمين على قتال المشركين فى بدر ويعدهم الجنة ، فقاتل القوم حتى قتل ، وهو يقول :

ركضا إلى الله بغير زاد إلا التقى وعمل المعاد
والصبر فى الله على الجهاد وكل زاد عرضة النفاد
غير التقى والبر والرشاد

وكما قال أبو البخترى حين نازله المجذر فى الغزوة نفسها ـ وكان المجذر أخبره أن الرسول ﷺ نهى عن قتله . ولكنه قاتل دفاعا عن زميله الذى أبى المسلمون قتله ـ :

---

(١) الاغانى ١٦ـ١٤ ساسى (٢) المرأة العربية ١ ـ ١٧٢
(٣) الاغانى ١٣ ـ ١٢٩ ساس (٤) الاغانى ٤ـ٣٤ ساسى
(٥) تاريخ الطبرى ٢ـ١٥٣ وسيرة ابن هشام ٣ـ١٣ .

لن يسلم ابن حرة أكيله   حتى يموت أو يرى سبيله [١]

وحدثت السيدة عائشة أن سعد بن معاذ مر عليها - وهى فى حصن بنى حارثه يوم الخندق، وأم سعد معها - وعليه درع مقلصة قدخرجت منها ذراعه كلها، وفى يده حربة يرقد - يسرع - بها ويقول :

لبث قليلا يشهد الهيجا حمل   لا بأس بالموت إذا حان الأجل

فقالت له أمه : الحق يابنى فقد والله أخرت [٢]

وبما يدل على غنائهم أمام الجيش قول درهم بن يزيد فى قصيدة يهدد بها مالك بن العجلان

لأصحبن داركم بذى لجب   جون له من أمامه عزف [٣]

* * *

وكانوا يتغنون بالشعر فرادى ويتغنون جماعات، فقد روى عن أنس بن مالك وعن السيدة عائشة أنه لما قدم رسول الله ﷺ المدينة جعل النساء والصبيان وذوات الخدور يغنين بقولهن :

طلع البدر علينا   من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا   مادعا لله داع
أيها المبعوث فينا   جئت بالأمر المطاع [٤]

وبنو النضير لما أجلاهم النبى عن المدينة خرجوا يريدون خيبر وهم يضربون بدفوف ويزمرون بالمزامير [٥]

وفى حفر الخندق رأى النبى عليه الصلاة والسلام ما بالصحابة من تعب وجوع، لأن الزمن كان عسرة والعام عام مجاعة فقال متمثلا بقول ابن رواحة :

اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة   فارحم الأنصار والمهاجرة

وأجابه الصحابة بقولهم :

نحن الذين بايعنا محمدا   على الجهاد مابقينا أبدا

وقال ﷺ متمثلا أيضا بقول ابن رواحة، وهو ينقل التراب وقد وارى الغبار جلد بطنه الشريف :

---

(١) تاريخ الطبرى ٢ - ٢٨١ المطبعة الحسينية   (٢) تاريخ الطبرى ٣ - ٤٩
(٣) الاغانى ٣ - ٢٢ الدار   (٤) السيرة الحلبيه ٢ - ٥٨
(٥) الاغانى ٢ - ٥٨

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينا وثبت الأقدام إذ لاقينا
والمشركون قد بغوا علينا وإن أرادوا فتنة أبينا

وكان يمد صوته ويكرر : أبينا ، أبينا .

وروى أنه ﷺ لما بدأ بالحفر فى الخندق قال :

بسم الإله وبه بدينا ولو عبدنا غيره شقينا
يا حبذا ربا وحب دينا(١)

ولم يكن الشعر العربى وحده هو المتصل بالغناء هذا الاتصال الوثيق ، فقد كان الشعر اليونانى كذلك ولهذا أطلق اليونان على الشاعر كلمة Aede أى المغنى فى القرن الثانى عشر والحادى عشر قبل الميلاد ، وكان هو ميروس يتغنى بالإلياذة على آلة موسيقية خاصة . ولم يكن التغنى بالشعر عند اليونان وقفا على نوع معين منه ، فقد تغنوا به فى مناجاة الآلهة وفى مدح الملوك ، وفى إلقاء القصص ، وكان الشعر التمثيلى يوضع حوارا وأناشيد غنائية .

« على أن الشعر الغنائى اكتسب هذه التسمية من نسبته إلى كلمة lyre وهى آلة موسيقية قديمة فسمى lyric Poetry أى الشعر الغنائى »(٢)

وكان أرسطو يرى أن الشعر الغنائى مرتبط أشد الارتباط بالموسيقى(٣). ثم نشأت بأوروبا فى العصور الوسطى جماعات من الشعراء الجوالين يطوفون بالبلاد ويتغنون بشعرهم ، وقد أطلق عليهم فى غربى أوروبا ووسطها التروبادور Troubadour وسموا فى شرقيها بالمنسنجر Minnisinger .

وفى اللغة الانجليزية كلمة Bard معناها الشاعر المنشد الذى يؤلف الشعر ويغنيه . وهو يحمل معه أداة موسيقية يعزف عليها حين يلقى شعره ويغنيه .

حـ — وما من شك فى أن الغناء يقتضى أن يكون الكلام الذى يغنى موزونا ، لأن الغناء منبعث عن عاطفة ، والمنفعل يتغنى بعاطفته وخواطره

---

(١) السيرة الحلبية ٢ — ٣٣٢

(٢) أصول النقد الأدبى ص ٣١٨ أحمد الشايب

(٣) قواعد النقد الأدبى لاسل كرومبي ترجمة محمد عوض محمد ٧٠

غناء ملائما لهذه العاطفة ، ولذا فإن الموسيقى الشعرية لابد أن تلائم الحالة النفسية للقائل ، يقول الناقد الانجليزى جرينج لامبورن Greening lamborn « إن الموسيقى خارجية وداخلية ، والعروض يتكفل بالخارجية ، أما الداخلية فتتكفل بها مقاييس صوتية فى داخل النفس أكثر مرونة وشمولا من العروض »(١)

فالوزن ظاهرة طبيعية للعبارة مادامت تؤدى معنى انفعاليا ، وعلم النفس يقرر أن الإنسان المنفعل تبدو عليه ظاهرات جثمانية عملية كاضطراب النبض وضعف الحركة أو قوتها وسرعة التنفس أو بطئه ، وحركة الأيدى قبضا وبسطا ، وهذه نفسها دليل على ما فى النفس من قوة طارئة « فاللغة التى تصور هذا الانفعال لا بد أن تكون موزونه ، ذات مظاهر لفظية متباينة لتلائم معناها وتكون صداه الصحيح » (٢) ولا سبيل إلى وزنها إلا أن تكون ذات تقاطيع وتراجيع وأجزاء متناسبة الأطوال والأصوات .

* * *

والغناء كان من دأب العربى وهو يقطع المسافات الطوال على راحلته ، تمشى به متئدة أو مرقلة ، وهو يهتز هزات تبطىء وتسرع ، وتطول وتقصر ، ومن دأبه وهو يهجم فى الحرب فيجرى أو يثب ، ومن دأبه وهو يمتح الماء من البئر فيرتفع وينخفض ، ومن دأبه وهو يرقص ، ومن دأبه وهو يزاول عملا تصحبه العاطفة ، وتعوزه التسلية الخ يغنى فيتقطع صوته وفقا لحركات جسمه وهزات نفسه ، وتتقطع كلماته ومقاطعه إلى أجزاء متزنة منسجمة ، لأن صلة الغناء بالشعر من شأنها أن تحدث ذلك .

فهذه اللحمة التى وصلت الغناء بالشعر تخولنا أن نقول إن التغنى بالكلام المنثور عسير ، لأنه لا يطاوع الترجيع ، ولا يلين للترنيم ، وبذلك لا تستحليه الأذن ولا يستسيغه اللسان .

فمن الطبيعى أن يتغنى الناس بكلام موزون يساير ألحان الغناء ، وتطرب

(١) rudements of Criticism (٢) الاسلوب ص ٤٩ أحمد الشايب .

له الأذان، وهم لذلك قد تغنوا بالسجع لما فيه من موسيقى الوقفات، ثم حاولوا أن يخضعوا هذه اللغة المسجوعة إلى النغمات التى تطابق العاطفة وتطاوع التغنى فتخيروا الكلمات المتسقة مع النغم الذى فى النفس ، وتصرفوا فى بعض الكلمات بتحريك الساكن وتسكين المتحرك وقصر الممدود ومد المقصور ، وترخيم بعض الأسماء وتنوين ما لاينون إلى غير ذلك مما يعد ضرورات شعرية ، وتصرفوا أيضا فى الأوزان نفسها بحذف وزيادة وتحريك وتسكين مما يعد من الزحافات والعلل العروضية .

فصارت اللغة التى يتغنى بها الناس لغة موزونة تلائم حركاتها وسكناتها ومداتها ووقفاتها الأنغام التى يتغنون بها ، والألحان التى يرجعونها ، والنفس وهو يطول أو يقصر ، ويسرع أو يبطىء ، فنشأ الوزن منوعا كتنوع التلحين الفطرى ، واستراحت النفس لهذا التقطيع ، وجعل المغنى به يوليه من عنايته وتجويده ، وجرت به الألسنة محتفيه ملتذة ، وغبر على ذلك ردحا من الدهر كان كفيلا بنقلته من الطفولة الى الصبا .

وهنا ، وفى هذه النقلة نشأ الوزن من الغناء بالكلام المسجوع .

* * *

ء — ونشأت القافية أيضا هذه النشأة ، فهى فى أول أمرها كانت سجعة ثم التزمت فى آخر الأبيات كلها تمشيا مع الغناء ، لأنها قوية الشبه بوقفات المغنين ، ونهايات العازفين ، وسكنات الناقرين على الدف ، والمصفقين بالأكف ، والموقعين بأرجلهم فى الرقص ، فهى نهاية النفس فى البيت ، واستراحة من البيت إلى البيت ، ولأنها مضافة إلى الوزن تكسب الشعر رنينا وتزيده موسيقى .

وقد أسهلت القافية للشاعر العربى لغنى اللغة بالمفردات الكثيرة ذات النهايات الواحدة ، ففيها « من القوافى المتناسبة مايتعذر وجود نظيره فى سائر اللغات ، فلا يسوغ لها أن تبرز عاطلا مع توفر ذلك الحلى الشائق ، فاذا اقتصر الافرنجى على صوغ شعره كالرجز العربى لكل شطرين قافيتان متناسبتان

ينتقل منهما الى غيرهما واضطر إلى تكرارها بعد حين ، أو لو اختار أن يعرى شعره من القوافى بتاتا فعذره أن لغته هكذا خلقت ، بل لو أجهد نفسه فى مواضع كثيرة لتعذر عليه تعزيز قافيتين بثالثة ، والشاعر العربى بخلاف ذلك ، فان كثيرا من ضروب القوافى تنهال عليه انهيال الغيث ، وإذا انحبست فلا تنحبس إلا لقصر باع أو لقرع باب ضيق ، أو لتجاوزه الحد فى إطالة القصيدة المنظومة على قافية واحدة »(١)

* * *

هـ — ثم تنوعت البحور وفق الموضوع ووفق الحالة النفسية للقائل ، لأن الموسيقى الشعرية المعبرة هى التى تساير موضوع القصيدة ، وتوائم التجربة الشعرية ، يقول سبنسر : « إن خير الموسيقى ماتتمشى مع الأفكار وتتساوق مع المعانى ، وتتجاوب نغماتها ونبراتها مع حالات النفس ، فالشاعر فى اهتياجه وغضبه وغيظه يكون تعبيره الموسيقى عالى النغمة وفى حزنه يكون منخفضها ، وفى تعجبه وفرحه وهدوئه واطمئنانه تكون مسافاته الصوتية قصيرة ، وأما فى بثه وألمه فتكون مسافاته الصوتية طويلة ، وهكذا تساير النغمات حالات النفس كما تساير موضوع القصيدة وفكرته (٢).

وهذه النشأة الغنائية أو النشأة الموسيقية للوزن هى التى مكنت الخليل بن أحمد أن يهتدى إلى علم العروض ، ولولا علمه بالموسيقى والتوقيع ماتهدى إلى الكشف عن قواعد هذا العلم ، وحسبنا أنه ألف كتابا فى النغم كما ذكر ابن خلكان (٣) ، وكان إخوان الصفا على حق إذ رأوا أن الموسيقى مماثلة لقوانين العروض (٤) .

ومما يعزز هذا الرأى أن الأوزان التى استحدثت بعد العصر الأموى كانت أيضا وليدة الموسيقى ، فالموشحات الأندلسية نشأت متأثرة بالغناء

(١) مقدمة ترجمة الالياذة للبستانى ص ٩٥

(٢) الشعر المعاصر . مصطفى السحرتى ص ١١٥

(٣) وفيات الاعيان ١٧٢/١ (٤) الرسائل ١٤٤/١ طبعة مصر

والموسيقى لتلائم الأوزان الشعرية الألحان الموسيقية .

ولذلك لم يتصور نقاد العرب الشعر إلا موزونا مقفى ، فمثلا ابن رشيق جعل أركانه أربعة : اللفظ والمعنى والوزن والقافية (١)، وأبو هلال العسكرى جعل من مراتب الشعراء العالية التى لا يلحقه فيها غيره من الكلام أنه منظوم (٢) و - ولا يقدح فى هذا أن شعر بعض الأمم لا يلتزم الوزن والقافية كالشعر القبطى ، فانه - على ما وصفه هرمن بونكر - يجرى على غرار الشعر الفرعونى ، فلا يراعى الوزن والقافيه ، لأنه يستعيض عن هذا النقص بقيم موسيقية يراعيها فى كل بيت ، تكفل انسجام الكلمات وتوقيعها ، وذلك بالتوافق فى جرسها وتتابعها فى ترتيب يحدث نغمة موسيقية ، شأنه فى ذلك شأن الشعر فى اللغة المصرية القديمة (٣).

ومع ذلك فان خلو الشعر من الوزن يحرمه خاصية من خواص جماله وتأثيره ، وإذا كان الكاتب الأمريكى والت وتمان Walt witman قد هجر الوزن فى معظم شعره واحتذاه كثير ممن جذبتهم الدعوة إلى التحرر من الأوزان ، وإذا كان أيضا لم يأبه للقافية ، « فإنه قد اهتم بالايقاع ، وقد بلغ شعره درجة إيقاعية عالية » (٤). فهو إذا يريد أن يعوض ماعمد إلى حذفه ، يريد أن يضفى على شعره المجرد من الوزن والقافية جمالا أسلوبيا آخر ولكن هذه الدعوة لم تصادف قبولا .

وكيف تصادف قبولا والوزن من أهم الخصائص التى تميز الشعر من النثر ولذا قال لاسل إركرومى Lascelles Abercrombie فى كتابه (الشعر : موسيقاه ومعناه) : « يلزم أن تصبغ الموسيقى كل التصيد فى الشعر الغنائى » (٥)

أحمد محمد الحوفى

المدرس بكلية دار العلوم بجامعة فؤاد الأول

---

(١) العمدة ١/٧٧ (٢) الصناعتين ١٣١

(٣) مجلة الرسالة . المجلد الأول ص ٧١٨ سنة ١٩٣٦ . (٤) الشعر المعاصر ص ١١٨ السحرتى . (٥) Poetry, its Music & Meaning عن الشعر المعاصر ص ١٨٨ .

خالد بن يزيد بن معاوية

عبد الرزاق حميده

الأستاذ بكلية دار العلوم

لا نجد كتابا تحدث عن نشأة العلوم فى الإسلام إلا نسب إلى خالد ابن يزيد الفضل الأول فى الاشتغال بالعلوم ـ وخاصة الكيمياء ـ وتوجيه أنظار المسلمين وأذهانهم إليها قبل أن يجىء عصر الترجمة والنهضة العلمية فى أيام العباسيين :

يقول عنه الجاحظ فى البيان والتبيين : إنه كان « خطيبا شاعرا، وفصيحا جامعا ، وجيد الرأى كثير الأدب ، وكان أول من ترجم كتب النجوم والطب والكيمياء ».

ويقول ابن النديم فى الفهرست إنه « عنى بإخراج كتب القدماء فى الصنعة، وكان خطيبا شاعرا ، فصيحا ، حازما . وهو أول من ترجم له كتب الطب والنجوم وكتب الكيمياء . . . وقد رأيت من كتبه : كتاب الحرارات . كتاب الصحيفة الكبير ـ كتاب الصحيفة الصغير ـ كتاب وصيته إلى ابنه فى الصنعة » .

أما ابن خلكان فيقول عنه : « إنه كان من أعلم قريش بفنون العلم ، وله كلام فى صنعة الكيمياء والطب ، وكان بصيرا بهذين العلمين متقنا لهما ، وله رسائل دالة على معرفته وبراعته ، وأخذ الصنعة عن رجل من الرهبان

يقال له « مريانس » ، وله فيها ثلاث رسائل ، تضمنت إحداهن ماجرى له مع مريانس ، وصورة تعلمه منه ، والرموز التى أشار إليها » .

ويقول عنه ياقوت فى معجم الأدباء . « ومما نسبوا إليه من التصانيف فى الكيمياء : السر البديع فى فك الرمز المنيع .

وظاهر من هذا أن المؤرخين مجمعون على أنه أول من اشتغل بالصنعة ـ الكيمياء ـ . ونخلص من أقوالهم بما يأتى :

(١) أن خالدا ترجم كتبا فى الكيمياء عند الجاحظ ، وترجمت له عند ابن النديم ، ولاخلاف بين القولين . فالمراد بالترجمة أن بعض المشتغلين بهذه الصنعة من الأجانب المقيمين بالشام قدساعده على نقل بعض المعارف اليونانية فى الكيمياء وكان لخالد فضل توجيههم إلى هذه الترجمة وتشجيعهم عليها .

(٢) وأنه اتصل بمريانس يتعلم منه هذه الصنعة فحاول أن يكون عالما لامشجعا فقط .

(٣) أما الكتب التى تنسب إليه فقد قرر ابن النديم أنه رأى بعضها ، ونحن نعتمد عليه كثيراً . ولانستطيع أن نرفض ما يقوله هنا ولكن لنا أن نفهم فى هذه الكتب أنها كانت مجموعة صغيرة من الأوراق موضوعاتها مختلفة ، فكانت منها هذه الكتب . وهذا يناسب حالة العلوم فى الدولة الإسلامية فى ذلك العهد .

أما أهمية هذا العمل من الناحية اللغوية أوالأدبية فهى أن البدء بالترجمة والتأليف فى هذه الناحية العلمية فتح أفقا جديدا أمام الأساليب العربية وساعد على اتجاه الكتابة إلى الأسلوب العلمى الذى يعنى بالحقائق ، ويتجنب الزخرف ، ويضع المصطلحات ، ويخص بعض العلوم ببعض الأساليب والكلمات ، وساعد على نقل بعض طرق التفكير والبحث إلى ميدان الثقافة العربية ، فشارك العلوم اللسانية والدينية فى وضع أسس اللغة والأساليب العلمية عند العرب .

• • •

لكن ما الذى حمل خالدا على الاشتغال بهذه العلوم والعناية بها وترجمتها؟ لا شك أن استعداده ومحبته لطريقتها فى البحث أو ميله إلى ما تعالجه من موضوعات كان السبب الأول - وأقول هذا على الرغم مما يقال من أنه كان يبغى الوصول إلى الذهب عن طريق هذه الصنعه ليشترى به قلوب الناس ويستعين به على استرداد الخلافة من بنى مروان - وأضيف إلى هذا أن اتصاله بعلماء السريان سهل له الاستعانة بهم فى كثير مما يحتاج إليه للاشتغال بهذا العلم. ولعلهم أمدوه بالآلات والمعلومات والمساعدين، وقد يكون حرمانه الخلافة بعد أن كانت قريبة منه سببا صرفه إلى الاشتغال بهذه الصنعة ليشغل نفسه عن اللهو من جهة، وعن المنافسة فى الخلافة من جهة أخرى، بعد أن رأى ما أصاب غيره من الخارجين عليها كعمرو بن سعيد.

. . .

وقد اشتغل بالعلوم الأجنبية أو استفاد منها قوم من العرب اتصلوا بالثقافة الأجنبية قبل خالد، وفى ترجمة الحارث بن كلدة الثقفى طبيب العرب المشهور أنه عرف طب الفرس ورحل إلى بلادهم، وتعلم فى مدرسة جنديسابور. وكذلك ابنه النضر بن الحارث. وكان طبيعيا فى المدارس والأديرة الموجودة فى الشام والعراق التى كانت تشتغل بالمسائل الدينية والعلمية على آثار اليونان والرومان أن تجذب بعض العرب إليها وأن يكون اهتمامهم بها أشد وأعظم بعد أن صاروا دولة متحضرة تتخذ حاضرتها فى دمشق الشام تلك المدارس.

. . .

أما الناحية التى يكتفى المؤرخون بالاشارة إليها فى خالد، فهى الناحية الأدبية، ولكنهم مجمعون على أنه كان فصيحا شاعرا خطيبا حازما جيد الرأى. وليس شىء من ذلك غريبا على حفيد معاوية. غير أن ما بقى من أخباره وأدبه قليل ومنثور فى كتب متفرقة يشهد له بالتقدم فى كل ما سبق.

أوشك أن يكون خليفة بعد موت أخيه معاوية الثانى لكن وجود

ابن الزبير فى الحجاز جعل الناس يعدلون عنه لصغر سنه ، وأبوا أن ينافسوا به وهو شاب ، الخليفة الشيخ عبد الله بن الزبير فى الحجاز ، فتخطوه الى مروان بن الحكم وإن لم ينسوه فى ولاية العهد أول الأمر . ثم حرمها وانتقلت إلى عبد الملك بن مروان . وكان خالد يشغل مروان بن الحكم فأراد أن يذله كى لا يثور عليه ، واستشار أصحابه فيما يفعل فأشاروا عليه أن يتزوج أمه ليذله ويخضعه ففعل . وكان مروان سريع العيب بذىء اللسان . وجادله خالد يوما فسب أمه فغضب وتغيظ ، وذهب إلى أمه حزينا مهتما وأخبرها الخبر ، فطيبت خاطره ، وأخبرته أنه لن يعود لمثلها أبدا ، وعزمت على الانتقام . فلما جاءها مروان أوعزت إلى الجوارى أن يكتمن أنفاسه بالوسائد إذا نام ففعلن فوجد ميتا فى فراشه . وعرف عبد الملك بذلك ، فهم بقتلها ولم يمنعه إلا الحياء أن يشيع أنه قتل أمرأة بأمير المؤمنين .

• • •

ولخالد مع عبد الملك مناظرات تدل على فصاحته وحضور بديهته : قالوا إن عبد الملك هدده مرة بالسطوة والحرمان ، فقال له خالد : أتهددنى ويدالله فوقك مانعة ، وعطاؤه دونك مبذول !

أما أطول المناظرات المروية بينه وبين عبد الملك فهى التى كانت بشأن سباق بين عبد الله بن يزيد أخى خالد وبين الوليد بن عبد الملك ، روى أن أخاه عبد الله بن يزيد أجرى الخيل مع الوليد بن عبد الملك فسبقه .

فدخل الوليد على خيل عبد الله فنفرها ولعب بها فجاء عبد الله إلى أخيه خالد فقال له : لقد هممت اليوم بقتل الوليد بن عبد الملك . فقال له خالد مستنكرا : بئس ماهممت به فى ابن أمير المؤمنين ، وولى عهد المسلمين ! فقال عبدالله : إنه لقى خيلى فنفرها وتلاعب بها ! فقال له خالد أنا أكفيكه . ثم دخل على عبد الملك وعنده الوليد فقال له : يا أمير المؤمنين إن الوليد ابن أمير المؤمنين لقى خيل ابن عمه عبد الله فنفرها وتلاعب بها فشق ذلك على عبد الله .

فرد عبد الملك عليه ردا فيه عز السلطان وسطوة الملك إذ تمثل بقول ملكة سبأ كما يحكيه القرآن الكريم : « إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون » . فغاظ الرد خالداً وأثاره ، فأجابه جوابا أقسى وأشد ، وعمد إلى المعين الذى أخذ منه عبد الملك وهو القرآن الكريم ، فكان فى حضور بديهته قوى الجواب قاسى الرد ، قال مقتبسا : « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ، ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » .

لم يقنع عبد الملك بما سمع ولكنه تراجع وكان لبقا فى تراجعه فقال : « أما والله نعم المرء عبد الله ، على لحن فيه » ! فقال له خالد : « أفعلى الوليد تعول مع اللحن ؟ » فقال عبد الملك : « إن يكن الوليد لحانا فأخوه سليمان » . قال خالد : « وإن يكن عبد الله لحانا فأخوه خالد » . فكان تتبعه لطريقة عبد الملك دليلا على منطقه المفحم لخصمه ، لأنه من جنس حجته . ثم قال له عبدالملك : « مدحت والله نفسك ياخالد » ، قال : « وقبلى والله مدحت نفسك يا أمير المؤمنين » . قال : ومتى ؟ قال : « حين قلت : أنا والله قاتل عمرو بن سعيد ، حق والله لمن قتل عمراً أن يفخر بقتله » ! قال عبد الملك : « أما والله لعمرو كان أطولنا باعا ! » . قال خالد : « أما والله إنى أرى ثأرى فى مروان صباح مساء ، ولو أشاء أن أديله لأدلته - يريد أخذه للخلافة منهم - قال عبد الملك يفض النزاع بعد أن أفحمه البيان والبديهة الحاضرة : ما أجرأك على ياخالد ! خلنى عنك . قال : لا والله . قال الشاعر :

ويجر اللسان من أسلات الحر ب مالا يجر منها البنان

فأحس عبد الملك أن الرفق أولى ، والتودد أملك للقلب ، فقال لابنه الوليد : ياوليد : أكرم ابن عمك ، فقد رأيت أباه يكرم أباك ، وجده يكرم جدك .

ولو نقل الينا التاريخ كل ماكان له من أدب لرأينا مثالا من

أمثلة الفصاحة العربية فى حضور بديهتها ، وسداد جوابها ، ولعله اكتفى بشاهد من فصاحته ليكون دليلا على ما بعده .

* * *

وإذا نظرنا اليه نظرة أخرى بعيدة عن العلم والسياسة رأينا رواة أخباره ينقلون عنه ما يدل على أنه كان يحسن الموعظة والتذكير كما يفعل الصالحون ، فقد سئل : ما أقرب شىء ؟ قال الاجل . قيل له : فما أرجى شىء؟ قال : العمل . قيل فما أوحش شىء ؟ قال : الميت . قيل : فما آنس شىء : قال : الصاحب المؤاتى ذو المساعد ،

وقيل له : ما الدنيا ؟ قال : ميراث . قيل . فالايام ؟ قال : دول . قيل : فالدهر ؟ قال : أطباق — أحوال — والموت يكمل سبيله ، فليحذر العزيز الذل ، والغنى الفقر ، فكم عزيز قد ذل ، وكم من غنى قد افتقر .

ولعل هذا القول الشبيه بأقوال الحكماء يدلنا على جانب آخر من صفاته وأخلاقه يشير اليه ياقوت الحموى فى معجم الادباء رواية عن ابن حاتم إذ يقول : « كان خالد من الطبقة الثانية من تابعى أهل الشام ، وقيل أنه روى الحديث عن أبيه وعن دحية بن خليفة الكلبى رضى الله عنه ، وروى عنه الزهرى وغيره ، وأخرج البيهقى ، والخطيب ، البغدادى ، والعسكرى ، والحافظ بن عساكر عنه عدة أحاديث .

ولا أدرى كيف نوفق بين هذا القول الذى يجعل يزيد بن معاوية راويا من رواة الاحاديث وبين ما عرف عنه من لهو وشراب . ويعتمد روايته أولئك المحدثون والمؤرخون ! إنها مسألة تدعو إلى التساؤل والتحقيق . ولو اقتصر نقلهم عن خالد لكان أهون .

* * *

قيل عن خالد إنه كان من صالحى القوم ، وكان يصوم الجمعه والسبت والاحد ، وكان جودا ممدحا ، يقدر الادب ويثيب عليه ، جاءه رجل فقال له : إنى قد قلت فيك بيتين ولست أنشدهما إلا بحكمى : فقال له قل فقال :

سألت الندى والجود : حران أنتما فقالا : بلى ، عبدان بين عبيد
فقلت : ومن مولاكما . ؟ فتطاولا على ، وقالا : خالد بن يزيد

فقال له تحكم . فقال : مائة ألف درهم فأمر له بها .

ويروى له شعر فى التذكير بالموت يقول فيه :

أتعجب أن كنت ذا نعمة وأنك فيها شريف مهيب
فكم ورد الموت من ناعم وحب الحياة إليه عجيب
أجاب المنية لمادعت وكرها يجيب لها من يجيب
سقته ذنوبا من أنفاسها ويذخر للحى منها ذنوب

أما الأبيات التى نسبتها إليه مشهورة ، فى قوله فى زوجته رملة بنت الزبير بن العوام :

أليس يزيد السير فى كل ليلة وفى كل يوم من أحبتنا قربا ؟
أحن إلى بنت الزبير وقد عدت بنا العيس خرقا من تهامة أو نقبا
إذا نزلت أرضا تحبب أهلها إلينا ، وإن كانت منازلهم حربا
وإن نزلت ماء ـ وإن كان قبلها مليحا ـ وجدناه ماء باردا عذبا
تجول خلاخيل النساء ولا أرى لرملة خلخالا يجول ولا قلبا
أقلوا على اللوم فيها فانى تخيرتها منهم زبيرية قلبا
أحب بنى العوام طرا لحبها ومن حبها أحببت أخوالها كلبا

ومات فى خلافة الوليد بن عبد الملك بعد أن ترك له ذكرا خالدا كاسمه فى تاريخ العلوم العربية ونشأتها . كما ترك للادب ومؤرخيه فرصة للحديث عن بيانه وفصاحته .

عبد الرزاق حميدة
الاستاذ بكلية دار العلوم

حديث رمضان :

صمت وأصوم ... !

للأستاذ خلف القاضى
مدرس بالمدارس الثانوية الأميرية

صمت ، لأنى مسلم ، ونشأت فى بيت مؤمن محافظ . . .

وأصوم ، لأن فى لياليه الجميلة ، يحيا أدب الفرقان ، وتقوى الصلات ، وتجدد الأواصر بين العشائر والأسرات . . .

* * *

صمت ، لأن فيه مساواة بين الرجال والنساء ، وعدلا بين المترفين والفقراء وديمقراطية مع الأحرار والأرقاء . . .

وأصوم لأن رمضان ، أشق عمل يؤديه الإنسان ، وأنبل فضيلة قررها الدين ، مع الزكاة . . .

* * *

صمت ، لأن فى الحمية غذاء للروح ، وصفاء للنفس، وراحة للبطن ...

وأصوم ، لأن فى الحرمان امتحانا لضبط النفس ، وقهرا لمشبوب العاطفة . وحدا من عنفوان الشباب . . .

* * *

صمت فى نهار يوليو المديد ، وسوف أصوم فى يوم يناير القصير ، لأنه يساير الفلك ، ويدور مع الفصول والأعوام . . .

وأصوم فى بلاد العرب الحارة ، وفى جو اسكتلاندة البارد أو مناخ كليفورنيا المعتدل . . .

صمت ، لأن الحاكم العسكرى ، قال لى : قدم ساعتك صيفا ، وأخرها شتاء ، فتحيرت ، واستمعت لقول الله « ثم أتموا الصيام إلى الليل » ، فأطعت .

وأصوم لاتفاق المسلمين فى الشرق والغرب على موعد الصيام ، فأنا أصوم ، حيث أشهد الهلال ، أو يكمل العد من شعبان . . .

* * *

صمت ، لأن الصائمين جميعا كأنهم — حين يسمعون الأذان — أسرة واحدة على مائدة الافطار . . .

وأصوم لأن التشريع أباح لى الفطر عند السفر ، وحين المرض ، ورخصه يوم الروع — خلف المدفع فى ساحة القتال . . .

* * *

صمت لمزية البر باليتيم ، والعطف على المسكين ، والإحسان إلى المنكوب والمنبوذ . . .

وأصوم ، لأن أداءه مثوبة عظيمة ، والعجز عنه عقوبة محببة ، لأن المتهاون فى يومه ، عليه أن يطعم ستين من المساكين . . .

صمت ، لأن الله رؤوف ببعض عباده فقال :

« وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين » .

فعرفت أنه رحم الشيخ الكبير ، وأشفق على المرأة العجوز ، وأجرى الخير منهما إلى الفقير والمحروم . . .

وأصوم ، لأن الحرب — وهى أستاذ الاقتصاد — علمتنى قوة الاحتمال فصبرت على طعام واحد من العدس والفول والمخلوط .

* * *

صمت ، لأن وزارة التموين ، شرعت الصيام المدنى فى هذه الأيام السود فحددت الخبز بالدرهم ، والسكر بالجرام والزيت بالبطاقة . . .

وأصوم ، لأن جيوش الأزمة ، احتلت الريف ، وكتائب الغلاء زحفت على الموظفين . والأزمة حليفة الجوع ، والصوم هو الحرمان المشروع . . .

صمت ، لأن التعاليم التى جاءت من السماء ، ما برحت مطابقة لروح الاجتماع ، متمشية وفق سنن الكون فى السلم والحرب ، وفى ظل العيش الرغيد ، أو أيام المحل الشديد . . .

وأصوم ، لأن فى الصوم مرانة على الحرمان فى السنين العجاف ، وتدريبا على الظمأ للمحارب فى رمال الصحراء ، واستعدادا لما تأتى به الحياة من فجاءات السماء ، وتقلب الحدثان . . .

* * *

صمت ، لأن فى الصوم ذكرى لغار حراء ، واحتفاء بعيد ميلاد الإسلام ، وتحية للمبادىء السامية ، التى جاءت مع ابن الصحراء .

وأصوم ، لأن المرسوم العلوى ، الذى صدر فى السماء ليلة القدر ، من رمضان – أعظم بركة على الانسانية ، من ١٤ يوليو أو ميثاق الاطلانطى .

. . .

صمت ، لأن أوله فرحة بالصيام ، وآخره فرحتان . عيد الفطر ، وعيد زكاة الاحسان . . .

وأصوم ، لأنه الفضيلة التى يستحيل فيها الرياء ، فلا رقابة على الافطار ، ولا اشتراك فى أداء الصيام ، فالانسان وضميره والمرء ومولاه . .

. . .

صمت ، لأنه مظهر الروحانية والزهادة ، ورمز الخلاص من آثام المادة ، وتجرد عن الهوى الغوى ، وهدنة للنفس الثائرة ، ورياضة – بين العام والعام – للروح المطمئنة ، واقتراب من الله ، وبعد عن لاحب الشيطان . . .

وأصوم ، لأنى آمنت بالعقل الأول ، والمشرع الأول ، وكأنه ينظر – منذ بداية الأزل ، الى نهاية الأبد – ينظر إلى صوالح الانسان .

. . .

سبحانه ! قدر فأحسن التقدير ، وقضى فأحكم التدبير ! . . .

« ربنا إنك تعلم ما نخفى وما نعلن ، وما يخفى على الله من شىء فى الأرض ولا فى السماء »

خلف القاضى

من لهوات الصبا

للشاعر محمد هارون الحلو

تلوح إلى عيني فتبدو البشائر   وصبح المنى بالروض ريان عاطر
رؤى فى سرى الأحلام تبهج خاطرى
وكم فى نعيم الحلم يسعد خاطر
يكاد بها يزهو على الخلد مائس   ترف بها حولى كمارف طائر
تغنى كما غنى الهزار بأيكة   وأين من الغريد تلك القيائر
تلوح فلاتخفى عن القلب متعة   وتخفى فلايبدو لعينى مسامر
هى السحر أوفى السحر منهاملامح   فياليت شعرى كيف تسعى الجآذر
إذا خلتها بات الفؤاد بنشوة   يلذ بها والجفن بالطيف حائر
وإن رحت أشكو الحب أو أرقب المنى
تجاذب قلبى فى الأنين الضمائر
أميل إذا مال الأنام مع الكرى   إلى روضة فيها ترق العوابر
فأنشق منها النفح وهو معنبر   لعل فؤادى بينها يتسامر
خيالى على متن السهابات ساهرا   وقلبى بألوان الصبابات زاخر
أحلق فى أفق قصى ومسبح   يبيت به زهر المنى يتناثر . .
إذا ملت نحو النور يممت مسرعا   فانى لأخشى أن تضل البصائر
هو الحب يعشى كل عين مشوقة   ويسبى كما تسبى العقول المزاهر
حداء الهوى سحر يلذ ومتعة   يلين به فى الناس فظ وغادر
يرقق إحساس الأناسى دائما   وبين حفافيه المنى تتكاثر
وأى امرىء يسعى على شاطىء الهوى   فان له فيه جنى وأزاهر
لعمرى لكائن يطبع الحب من فتى   على خلق فيه تصان السرائر
لكم ذلل الإنسان حتى أذلة   وراح به والحب ناه وآمر
إذا قال: قال القلب سمعاً ونفذت   إشاراته والوجد للمرء آسر

يكاد به المحبوب يحيا مؤلها ... فكيف يدين المرء والقلب كافر
(...) وفى الأضلاع حبك جذوة ... وحر هجير من تجنيك ساعر
عرفتك أنى فيك ألطاف جنة ... وقد كان لى فيها هزار مهاجر
تناديننى فى الصبح والفجر ثامل ... وطير الهوى فى لذة الخلد ساكر
وتضفين حولى من لحونك نغمة ... أظل بها فى وحدتى أتذاكر
بنات الدجى فى أفقها مشرئبة ... وأنت على أفقى يناغيك شاعر
مزجت بخمر الجفن خمراً من المنى ... على شفة فيها تنام النواظر
وعيناك أى السحر يلمح فيهما ... وخداك والأهداب ثم المحاجر
لى الويل منها كيف يارب صورت ... لقد بت لا تحلو لدى الحرائر
فلما نظرت البدر أكمل صورة ... يزينه خال من الحسن ساحر
ومعنى له فى النفس أنفاح لذة ... ترف بها تلك الأمانى البواكر
وسيال كهراب له أى هزة ... بروحى ودنيا طيبتها العواطر
خلدت إلى فىء الهوى أنشق المنى ... به وخمار الحب خاف وظاهر
يرانى أصحابى فلا يذكروننى ... بغير حديث فيه يغتاب فاجر
فيارفقتى مهلا حنانيكم اذكروا ... إذا شئتم من قد عنته الزوافر
ينامون ليلى والضنى حول مرقدى ... وشجوى حديث عندهم وتنادر
لقد هدنى شجوى وكم قض مضجعى ... سهاد وما أدرى لأى أصابر
وليس إلى قلبى وفى ومخلص ... وليس إلى ضعفى معين وناصر
شكوت إليها الوجد والقلب هائم ... فقالت وبى منه أسى وهواجر
حنانا زفير الشوق يحرق أضلعى ... ودنياى فيها ضجة، وتآمر
أذوب على لفح الأسى لهف مدنف ... يموت وفى جنبيه تهذى المشاعر
فقلت لها أنت التى خف خافقى ... إليها وفى خديك تحلو المناظر
سلبت فؤادى والنهى والهوى كما ... ترين له فى كل لمح ظواهر
يجاذبنى أنى أروح واغتدى ... وترسل شكواها إليك الحناجر
سلى الليل عنى كيف بت تعودنى ... جدود من البؤسى هناك عواثر
تقدم لى كاسات شجو وحسرة ... أنادم فيها طيفها وأعاقر

خمار من الأوهام يطوى نواظرى فتبلى من الآلام تلك النواظر
رغبت عن الأحزان يوما وليلة وبت وفى جنبى يهتف زامر
يناغمنى فى حندس الليل أخرس وتصرخ من حولى الدنا والأداهر
فأسمع أنغامى على شاطىء البلى تفرقها الآهات وهى مجامر
أحن إلى من كنت أرعى لعهدها وأصبو لها والصبح ريان زاهر
وأهتف حتى تسمع النوح غادتى فتنقرلى والجفن نعسان خادر
وتبعث كالأطيار أى ملاحن تسر بهـا أضلاعها وتجاهر
فأنهى إليهـا أننى أى مدنف وأبكى فيهمى دمعى المتقاطر
سلاما إليها كلما حن بلبل إلى إلفه والصبح للضوء ناشر
وكم ليلة بتنا يحاذى مقامها مقامى وحولينا الرقيب المحاذر
يلوح ويخفى ظله من أمامنا وقلبى بشوقى والكآبات عامر
فتغمزنى سعدى وتبكى صبابة أيفضحنا هذا الغوى المداور
فأمسك عن قولى لها ويح حبنا وتفهم منى رغبتى إذ أشاور
يقول لى العذال هل لك غيرها ففى الحى أشباه لها ونظائر
وكل فؤاد عابد من أحبه ودير الهوى فيه تقام الشعائر
نعمنا بهذا الحب حتى ترنمت أحاسيس لاترقى إليها المشاعر
وقـد أورقت أيامنا وشبابنا أماليد تشدو فى ذراها العصافر
ويجمعنا فى الليل إيناس مجلس تروق نكات بينه . . ونوادر
تراق علينا جامة قدسية تفيض بها تلك العيون السواحر
ويشملنا طيب من الروح فاغم يطوف به من لاعج الشوق زائر
فان ذكروا أخبار ليلى وقيسها ففى القلب لفح من أسى الحب ثائر
يسلوننى والليل قد فاض روحه ونهر الدجى فى صفحة الكون غائر
وهل يعرف السلوى فؤاد مدله له فى ذرا الأكوان يسرح خاطر
فيشكو إلى الافلاك حبا مبرحا وأجفانه بين الليالى هوامر
وكم خط بالدمع السخين شكاية تسجلها طى القرون الأعاصر
سلام على الدنيا سلام على الهوى إذا كنت فى وجدى بروحى أقامر

الفهـــرس

الصفحة	الموضـــــوع